

كَشَفُ الأَكْنَةِ

عن بعض جهود

الشيخ محمد أبه أج الدعوية

الإعداد:

محمد قاسم محمد

التقديم:

الشيخ إبراهيم مصطفى مالك

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

طُبِعَ على نفقة

كلية المنير العالمية بمدينة مِيدُغُري ولاية بَرَنُو - نيجيريا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَشْفُ الْأَكْنَةِ

عَنْ بَعْضِ جُهُودِ

الْشَيْخِ مُحَمَّدِ أَبِي أَجِ الدَّعْوِيَّةِ

تقديم

فضيلة الشيخ إبراهيم مصطفى مالك حفظه الله:

كبير تلاميذ الشيخ، وإمام وخطيب مسجد ميري بميدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وهادي البشرية، وقائد الخلق، ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه، سيد الخلق محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فقد قرأتُ هذا الكتاب القيم قراءةً عابرةً فوجدتُ أن الكاتب الدكتور محمد قاسم محمد وفقه الله وسدده قد بذل جهداً جباراً؛ حيث ذكر فيه نبذة عن

حياة الشيخ محمد أبـه أج رحمه الله، وكشف عن بعض الجهود الدعويّة التي بذلها الشيخ، كما أبرز للقاري الأساليب الدعويّة الحكيمة التي استخدمها الشيخ في إيصال دعوته إلى أبناء بلده عامّة، وأهل منطقته على وجه الخصوص.

فجزى الله الكاتبَ خيرَ الجزاء، وبارك في علمه، وإنني لأقترح بطباعة هذا الكتاب ونشره؛ ليستفيد منه أبناءُ الأمة، كما أنصح تلاميذَ الشيخ بقراءة هذا الكتاب وتدرّسه تلاميذهم في مجالسهم العلميّة.

اللهم اغفر لشيخنا، وأدخله الجنة الفردوس الأعلى، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.

إبراهيم مصطفى مالك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي كرم العلماء، وجعلهم ورثة الأنبياء،
يأمرون بالمعروف ويحذرون من الفحشاء، تخطوا عقبات
كأداء، وساروا في ليالٍ دأداء؛ ليوصلوا رسالة ربِّ
الأرض والسماء، ويدعوا إلى الملة السمحاء؛ فصاروا
الأعلام النبلاء، سَطَّروا بسيرهم مواقف العظماء.

أشهد أن لا إله إلا الله، له الشكر والثناء، تحدَّى بكتابه
البلغاء، فعجز عن الإتيان بمثله الفصحاء، وأشهد أن
محمدًا عبده ورسوله، جاء بالنور والضياء، أقام الله به
الملة العوجاء، وترك أمتَه على المحجة البيضاء، صلى الله
عليه وعلى آله الذين كانوا معه في السراء والضراء،

وأصحابه الذين نصرُوا دينه في الشدّة والرُخاء، ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم اللقاء.

أما بعد: فإن من فضل الله سبحانه وتعالى على أهل برنو ظهورَ دعوة الشيخ الزاهدِ المجدّد، والداعي المحنّك، والواعظِ المناضِل: الشيخ محمد أبي أج رحمهُ اللهُ رحمةً واسعةً، وأسكنهُ فسيحَ جنّاته، فهو حقاً من العمالقة الدعويّة، والشخصيات المرموقة التي قدّمت خدماتٍ متطوّرةً للحقل الدعوي وبذلت جهوداً جبّارةً في سبيل إصلاح الفرد والمجتمع، وقامت بالعمل الجادّ الدؤوب؛ لإحياء المفاهيم الدينيّة على الوجه الصحيح في نفوس المسلمين من خلال تعليمهم أمور الدين تعليماً مركّزاً، وتنقيفهم فيها ثقيفاً نافذاً؛ فانتشرت ضياءُ دعوته في منطقة برنو خاصّة، والمناطق المجاورة لها

على وجه العموم؛ فنوّرت حوالمك الجهل بعد ما ألقّت
بظلالها على كثيرٍ من المسلمين في أرجاء المنطقة؛
فصارت دعوته سراجاً يتلألأ في سماء برنو، يشرق
بسناه فوق ليالي الجهل، وسحاباً هامعاً اخضرت به
أرضُ المنطقة.

وسوف تُحاول الصفحاتُ الآتيةُ إبرازَ بصماتٍ إصلاحيةٍ
خلفتها هذه الشخصيةُ العلميةُ من خلال تناول نقاطٍ
مهمّةٍ تتعلّقُ بجهودها الدعوية؛ لتكون مرآةً عاكسةً لما
قدّمته من إنجازاتٍ دعويةٍ عملاقةٍ، ونشاطاتٍ إصلاحيةٍ
مثمرةٍ.

والكاتب إذ يستعمل يراعته ليُسَطر عن هذه الشخصيةِ
العظيمة ليعلم في قرار نفسه أنه ليس أهلاً لأن يقوم
بمثل هذا العمل، إلا أنه لما اعتبر نفسه ثمرةً من ثمار

دعوة الشيخ المباركة ونتاجاً من نتاجها الميمون شرع في كتابة شيءٍ يسيرٍ مما وصل إليه علمه النزيرُ من مجهودات الشيخ الدعويّة؛ إذ استهلَّ حياته وأشرطه الشيخ الدعويّة وأقواله الإصلاحية وآراؤه التجديدية تملأ أرجاءَ برنو بأسلوبٍ سهلٍ، ولغةٍ فصيحَةٍ، وبياضٍ يققٍ؛ فكان لتلك الأشرطة أثرٌ كبيرٌ في تكوينه.

ولعلَّ أوَّلَ ما استمع إليه شريط قصة الجمجمة التي ترجمها الشيخُ في بعض محاضراته إلى اللغة الكانورية، وهي القصة التي تحكي ما جرى بين نبي الله عيسى عليه السلام وجمجمة. وقد قال محمد بن جرير الطبري: "يُذكر عن عيسى قصصٌ في إحياء الموتى لا يمكن الوقوف على صحَّتها، وقال الشوكاني: في الإنجيل

بعضها، وهي داخلة في حكم القصص الإسرائيلي
يُستأنس به فحسب، ولا يُعمل ولا يُحتجُّ به"^١
والخلاصة: أن هذه القصة لا تتمكّن من المرور
بالغربال النقدي الذي وفّرته علومُ الحديث؛ لتمحيص
المتون والوسائل الإسناديّة التي تصل بها إلينا، كما أنّها
لا تتمكّن أيضاً من تجاوز الحواجز التي تنصبها قواعدُ
الجرح والتعديل؛ لتمييز الغث من السمين، ولتأكد
سلامة القصص من العلل القادحة، غير أن الشيخ قد
ترجمها إلى اللغة الكانوريّة بطريقةٍ جذّابةٍ، وصوتٍ مؤثّرٍ،
وعرضٍ أحاذٍ؛ فصار من أشهر الأشرطة الدينيّة المنشرة
في تلك الفترة.

^١ مركز الفتوى بإشراف د. عبد الله الفقيه، فتاوى الشبكة الإسلامية، رقم الفتوى: ٧٣٦٣٦.

تاريخ الفتوى: ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٧هـ.

إلا أنها قد تُشهد لهذه القصة الآيات القرآنيَّة التي تتحدَّث عن إحياء المسيح عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى، من ذلك قوله تعالى: (وَأُبرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) آل عمران: ٣٩، وقوله تعالى: (وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ (المائدة: ١١٠). والله أعلم

كما أن لابن أبي الدنيا كتاباً في هذا الصدد، سماه من عاش بعد الموت، ذكر فيه أخباراً كثيرةً، وقصصاً عجيبةً عن الذين عاشوا بعد الموت.

لكني لا أتذكر التاريخ الزمني الذي يصادف ذلك الاستماع للشريط المذكور على وجه التحديد، غير أن المؤكَّد أنه كان في مرحلة طفوليَّة؛ بدليل التصرُّور الوهمي المضحك الذي يرتسم في ذهني كلما استمعتُ إلى ذلك

الشريط في تلك المرحلة؛ إذ أُحدِّث نفسي بأنه لا شكَّ أن الشيخَ رحمه الله قد شهد ذلك الحوارَ الذي جرى بين الجمجمة والمسيح عيسى عليه السلام، وإلا كيف يتمكن من عرضه في هذا الأسلوب الأنيق!؟

فوفاء لبعض ما يجب علينا تجاه الشيخ من حقوق المستفيد من المفيد تمَّ القيامُ بهذا العمل المتواضع، راجياً من الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجنبنا الشرك والبدع والمنهيات، ويرزقنا العمل بما علمنا، ويغفرَ للشيخ ويرحمه؛ إنه سميع قريب.

وقد اعتمد المقيِّدُ في الحصول على المعلومات التي تكشف عن بعض جهود الشيخ الدعويَّة على مجموعةٍ من أشرطته التي استمع إليها، ومعظم تلك الأشرطة ما تمَّ تسجيله من شرح معاني القرآن الكريم إلى اللغتين:

الكانوريّة والهوسويّة؛ إذ إن الكثرة الغالبة على أشرطة الشيخ رحمه الله ترجمة المعاني القرآنيّة التي يُقدّمها خلال شهر رمضان المباركة، واعتمد أيضاً على المقابلة التي أجراها مع بعض تلاميذ الشيخ، خاصّة مع الشيخ: إبراهيم مصطفى حفظه الله، كبير تلاميذ الشيخ، فقد أسعف الكاتب بمعلوماتٍ كثيرةٍ، تتعلق بحياة الشيخ عامّة والجانب الدعوي منها على وجه الخصوص، كما اعتمد المقيّد أيضاً على معاشته الشخصية مع الشيخ من خلال زياراتٍ في مناسباتٍ عديدةٍ، وحضوره لبعض مجالس الشيخ العلميّة ومحاضراته العامّة ومشاهدة برامج التلفزيون والإذاعيّة، كما أنه قد سافر مع الشيخ في بعض الحملات الدعويّة التي يقوم بها الشيخ لتوعية المسلمين بأمور دينهم خارج مدينة ميدغري، مثل

مَنْغُونُو، وَأَسْكُرُ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ،
وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا صَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَيَتَجَاوَزَ عَنِ السِّيَّاتِ؛
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

نبذة يسيرة من سيرة الشيخ محمد أبيه أج رحمه الله
هو الشيخ الإمام محمد الأول بن أبيه أج بن إدريس
الكانوري البرناوي.

وُلد الشيخُ في مدينة ميدغري عاصمة ولاية برنو بجمي
هوساري عام ١٩٤٠م.^٢

بدأ الشيخُ حياته العلمية في الخامس من عمره، حيث
بحث له والده مدرساً يعلّمه القرآن الكريم في البيت، ولما
بلغ الثانية عشر من عمره انتظم في حلقة الشيخ
مصطفى مَي جلالين،^٣ وتلقّى فيها العلوم الأولى تتعلّق
بالتوحيد والفقه، وفي عام ١٩٦٦م التحق بكلية المعلمين
لتدريب المدرّسين بولاية "صُكُتُو" درس فيها ثلاث
سنوات، ولم تكن دراسته هناك مقتصرةً على تلك

^٢ مجلة طه، الإصدار الأول ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨م، ص: ١٠.

^٣ كلمة " مَي " كلمة هوسوية تعني صاحب ، مَي جلالين بمعنى صاحب تفسير الجلالين الذي يقوم بترجمة معاني تفسير الجلالين إلى لغة هوسا .

الكلية، ولكنه كان يحضر حلقاتاً علميةً أخرى، مثل حلقة الشيخ الحاج بلو غسو، درس فيها اللغة العربية، كما درس علم الحديث في حلقة الشيخ محمد أبي عاقلة السوداني.^٤

ولما تخرّج وعاد إلى ولايته برنو عُيّن موظفاً في وزارة التعليم، وفي عام ١٩٦٨م تمّ إرساله إلى الحكومة المحلية أنغورو للتدريس في المدرسة الحكومية، وفي عام ١٩٧٢م التحق الشيخ بكلية المعلمين بـ "غُمبي"، كما التحق في عام ١٩٨٢م بجامعة ميدغري للحصول على درجة دبلوم، ولم يزل يواصل دراسته النظامية حتى حصل على شهادة الليسانس، وذلك في عام ١٩٨٧م، وقد بدأ دراسة الماجستير في الجامعة نفسها إلا أنه لم يكملها.^٥

^٤ المصدر السابق.

^٥ المصدر السابق.

يُعتبر الشيخُ محمدُ أبَّهَ أجٍ من أبرز الذين حملوا راية الدعوة ولواء الإصلاح في نيجيريا الشماليَّة عامَّة ومنطقة برنو منها على وجه الخصوص، كما أنه يُعتبر من أبرز من قاموا بإيصال الرسائل القرآنيَّة إلى العامَّة، وذلك عن طريق ترجمة معانيه إلى اللغة الكانوريَّة والهوسا، ونشر كنوزه في ربوع البلاد بأسلوبٍ متينٍ، وقد كرَّس حياته للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وبيان حقيقة التوحيد، والحثِّ على متابعة السنة ومحاربة العادات والتقاليد التي تتضمن الشرك والبدع التي تُمارس في هذه المنطقة في بعض المناسبات الدينيَّة والعُرُفيَّة، وقد بذلت هذه الشخصيّة النادرة جهوداً جبَّارةً، وواصلت الليل بالنهار لإخماد أوارِ الشرك وإطفاء نار البدع والمنهيات، كما قام

بتصحيح مفاهيم المسلمين في أمورٍ كثيرةٍ تتعلق بالدين
والدنيا.

وقد انخرط الشيخ رحمه الله في العمل الدعوي،
والنشاطات التدريسيّة منذ اللحظات المبكّرة من عمره،
وذلك في عام ١٩٥٨م وهو إذ ذاك صغيرٌ قليل الرُّوبة،
حيث كان عمره ثمانية عشر سنة، ولكنه كبيرُ الهمة،
بعيدُ النظر، وقد تفرّس ذلك فيه شيخُه مصطفى مَيّ
جلالين رحمه الله؛ إذ إنه لمّا مرض عام ١٩٥٨م
أجلسه على كرسيّه التدريسي، حيث "أمره بأن يقوم
مقامه في التفسير، وتدرّس زملائه الذين يفوقهم في
الفهم والمعرفة"^٦ وقد زوّده هذا التبكيّر طاقاتٍ كثيرةً من
الخبرات المتنوّعة، والتجارب المختلفة، جنى الشيخ ثمارها

^٦ المصدر السابق، ص: ١٠.

في الفترات المتلاحقة من قطاعات حياته الدعوية التي عاشها، والمراحل الإصلاحية التي قطعها من خلال تظعانه الدعوي المبارك، حيث استطاع - بإذن الله تعالى - أن يتأقلم مع مناخاتٍ مختلفةٍ، ومعطياتٍ متجددةٍ تُقدِّمها ظروفٌ زمانيةٌ ومكانيةٌ عديدةٌ مرَّت بها مسيرةُ الشيخ الدعويةُ في مراحلها المتعدِّدة.

تُوفِّي الشيخُ رحمه الله تعالى بمكة المكرمة بعد أداءٍ مناسكِ الحجِ وصَلِّي عليه في المسجد الحرام ودُفِن في مقبرة المعلى بمكة المكرمة وذلك عام ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م وعمره تسعة وستون سنة، قضى القسطَ الأكثرَ منه في البذل الدعوي، والعطاء الإصلاحِي، حتى سفره إلى الحج الذي تُوفِّي في أثناءه لم يكن حاجاً فحسب، ولكن حجةً وتوعيةً، حيث كان عضواً في

لجنة أمير الحج التي كوّنتها حكومة ولاية برنو - نيجيريا من أجل توعية حجاج الولاية في أمور الحج، والقيام بالإشراف على شؤونهم في الأراضي المقدسة.

فتوارى جسده في التراب، ولكن أثره مازال حياً كالعبير المنتشر، وأشرطته لم تزل حاضرةً بين الناس كالنخلة تُؤتي أكلها كلّ حينٍ بإذن ربها، وكالغيث أينما وقع نفع، وطلّابه لم يزالوا على نهجه في تعليم الناس أمور دينهم، وبيان حقيقة التوحيد، ونشر السنّة، والحثّ على اتّباعها، واستعمال الألفاظ السهلة والمفردات المتداولة في عمليّة الترجمة، فكانّ الشيخ كوّن جبهةً دعويّةً تتمثل في تلاميذه، ومن سار على منواله ممن يقوم بالدعوة إلى الله تعالى، ولقد صدق فيه قول الشاعر:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاء
ففرز بعلم تعش حياً به أبداً
الناس موتى وأهل العلم أحياء
رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه، إنه سميع
قريب.

أبرز الأمور التي تركزت عليها دعوة الشيخ الإصلاحية كتب الله سبحانه وتعالى القبول لدعوة الشيخ منذ نعومة أظافرها، حيث تتسّم ذروة الإعجاب، وتنبؤاً منزلة قبولية عالية، تكاد تكون فريدة من نوعها في عرض ولاية برنو وطولها.

وقد تركزت دعوته على أمور كانت هي أبرز الغايات التي وضعها الشيخ بين عينيه، ووقف عمره لتحقيقها، ومن أهم تلك الأمور ما يأتي:

- الدعوة إلى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.
- الدعوة إلى تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.
- الدعوة إلى أداء العبادات على الصورة التي وردت عليها في الهدى النبوي.
- محاربة السحر والشعوذة والتنجيم.

- محاربة التبرج والسفور.
- الترغيب في طلب العلم، ومعرفة الأحكام الشرعيّة.
- الحثُّ على أداء الواجبات، والتحذير من ارتكاب المعاصي.
- محاربة العادات والتقاليد السيئة.
- الحثُّ على الإحسان إلى الولدين والأقارب وأداء الحقوق الزوجية.
- الدعوة إلى الائتلاف، ونبذ الاختلاف.
- الحثُّ على الالتحاق بالمدارس الحديثة؛ وذلك كي يحصل المسلمون على الأسباب العصرية التي تُمكنهم من المشاركة في الوظائف الحكوميّة وتولي مناصبها؛ ليتسنى لهم الحصولُ على حقوقهم والدفاع عن دينهم.

- محاربة البطالة، وذلك عن طريق الحثِّ على الانخراط في صفوف التجار، أو المشاركة في الوظائف الحكومية، أو الانضمام إلى النوادي الزراعية، والحرف اليدوية والمهن الصناعية.

هذه الأمور المذكورة يمكن أن تُعتبر هي أبرز الأمور التي تتمحور حولها هموم الشيخ الدعوية، وينصبُّ في إطارها جلُّ اهتماماته الإصلاحية، وتتعنون عنه موضوعات محاضراته العامة والخاصة، وقد تكون هناك أمورٌ أخرى لم يتمَّ ذكرها ضمن القائمة السابقة إلا أنها قد تنضوي تحت النقاط المذكورة.

وقد تمَّ اختيارُ ثلاث نقاطٍ من بين الأمور السابقة؛ لتُشكِّل نماذجَ تمثيليةً، يتمُّ تناوُّلها بشيءٍ يسيرٍ من التفصيل، وإيراد أمثلةٍ توضيحيةٍ لها؛ كي تتحوَّل إلى

لوحاتٍ تَرْتَسِمُ عليها صورةٌ بعض الجهود الدعويّة التي قام بها الشيخُ رحمه الله تعالى من خلال حياته، كما أنّها يمكن أن تصير نمطاً لمن يريد أن يسير على خطوات الشيخ الدعويّة ويجذو حذوه الإصلاحية.

وتحقيق تلك الأمور التي سلف ذكرها يحتاج إلى بذل الطاقة واستفراغ الوسع لدفع عجلة الإصلاح إلى الأمام، وإزالة العقبات التي تُعَرِّق الوصول نحو الأهداف التجديديّة، والمرامي الإصلاحية.

وإذا نظرنا إلى الشيخ بمنظارٍ فحصرٍ من خلال رسائله الدعويّة ودروسه العلميّة ومجالسه التفسيرية يمكننا استكناه أمورٍ اعتمد عليها الشيخُ في تحقيق مشروعه الإصلاحية الذي يتمثّل في النقاط الماضية، والذي يهدف إلى إخراج منطقة برنو برمتها إلى برِّ الأمان بعد

أن ولجت في النفق المظلم، ودخلت في السدفة السوداء بسبب الجهل.

وقد تَضَمَّنَت تلك الأمور إجراءات صارمةً وحلولاً جذريَّةً لوضع حدٍّ من انتشار ظاهرة الإِشْرَاقِ باللهِ والبدع وارتكاب المعاصي والتهاون بالمأمورات، كما أنها قد تَضَمَّنَت إعادةَ إعمار ما تهدَّم عند الناس من المباني التوحيدية، وترميم ما تصدَّع من الجدار الإسلامي، وإصلاح ما تضرَّر من الأركان الإيمانية، والأحكام الشرعية بسبب الجهل، كما أن تلك الأمور اشتملت على قدرٍ كبيرٍ من القوَّة العلمية والأساليب الدعوية التي تناسب مع متطلَّبات الظروف الزمانية والمكانية التي يعيشها المنطقة، وتتلاءم مع المعطيات العصرية، وتتسم أيضاً بالحيوَّة والنشاط لإنجاز الأعمال الدعوية وتحقيق

أهدافها الإصلاحية، معتمدة في الوقت نفسه على عقلية إسلامية واعية، واتصفت أيضاً بسعة الأفق وبُعد النظر في تقويم الماضي والتخطيط للمستقبل، كما اشتملت أيضاً على آليات قوية لضمان الاستمرارية وفق الخطة التي رسمها الشيخ من خلال مسيراته الدعوية، وذلك في تزويد الناشئة خاصة أولئك الذين يتلمذون على الشيخ قدراً كبيراً من العلوم الشرعية والثقافات الإسلامية، كما أنها اتصفت بالمرونة، حيث تمكنت من مواكبة العصر، ومسايرة المتغيرات، والتعامل مع كافة الشرائح التي تكون منها المجتمع البرنوي خلال مشوار طويل قطعه الشيخ في مسيرة دعوية دامت واحداً وخمسين عاماً، تحمّل خلالها أعباء الدعوة إلى الله تعالى في منطقة برنو وما جاورها، ويبدو أن قوائم المركب

الذي استعمله الشيخُ خلالَ هذه المسيرة الطويلة قوِيَّةٌ
جدا؛ إذ لولا ذلك لما احتملت قطعَ هذه المسيرة في
تَظُّعانٍ مستمرٍّ، ورحلةٍ متواصلةٍ، ولا استطاعت التغلُّبُ
على ما يتعرَّض لها من عراقيلٍ وعوائقَ خلالَ رحلتها
المباركة.

دخول الإسلام منطقة برنو

قبل البدء بالحديث عن بعض الجهود الدعوية التي بذلها الشيخ رحمه الله من أجل تحقيق مشروعه الإصلاحية المتمثل في النقاط السالفة ينبغي أن يُشار بشكلٍ عابرٍ إلى الفترة التي دخل الإسلامُ منطقةَ برنو، وإن كان دخوله عن طريق إسلام الأفراد أو بعض القبائل التي تقطن مملكةَ كانم برنو مما يصعب تحديده بفترةٍ زمنيةٍ معيّنة، "إلا أن بعضَ المصادر ذكرتُ بأن الإسلام جاء إلى مملكة كانم في ركاب قومٍ من بني أمية، وقدوا إلى البلاد في القرن الثاني والثالث عند محتهم مع العباسيين الذين استولوا على الحكم بعد سقوط الدولة الأموية عام ١٣١هـ.^٧

^٧ فضل كلود دكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبرطورية كانم، طبعة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا ١٩٩٨م، ص: ٩٣.

وأما دخول الإسلام بالشكل الرسمي فيمكن تحديده
بعام ٤٧٩هـ / ١٠٨٥م، وذلك لما اعتنق ملك مملكة
كانم برنو همي جلهمي الإسلام وهو "الملك الثاني عشر
في عداد ملوك كانم قبل الإسلام، والأول بالنسبة لملوك
الإسلام، وكان حكمه في الفترة ما بين عامي (٤٧٩-
٤٩٠هـ / ١٠٨٥ - ١٠٩٧م) وقد سمي نفسه محمد
بن عبد الجليل"^٨

وواضح مما سبق أن هناك فترةً زمنيةً طويلةً بين دخول
الإسلام عن طريق الأفراد، ودخوله بحلّةٍ رسميّةٍ؛ إذ إن
نجم الدين الإسلامي قد بدأ يلمع في سماء الدولة عن
طريق إسلام الأفراد منذ القرن الثاني الهجري كما سبق،
وقد ساعد هذا الأمر على تنضيد الأرضية التي تتناغم

^٨ فضل كلود الكو، المصدر السابق، ص: ٩١

مع الدولة الإسلامية التي ستنشأ، بعد أن دخل الإسلام بشكلٍ رسميٍّ عن طريق إسلام السلطان همّي جلّمي: محمد بن عبد الجليل، وقد "وقع على عاتق السلطان مسؤولية إعادة التخطيط للدولة والانتقال بها من مرحلة الوثنيّة إلى مرحلة الدين الإسلامي والرقي الحضاري، وهي مهمّة شاقّة... إلا أن السلطان قد نجح في تلك المهمة واستطاع تثبيت دعائم الإسلام في بلاده"^٩

وقد كان لسلطين مملكة كانم برنو دورٌ بارزٌ في نشر الإسلام داخل حدود المملكة وخارجها، سجّل لهم التاريخُ أمجاداً عظيمةً في توسيع رقعة الإسلام. "ويُعدُّ السلطانُ إدريس ألوّما من السلطين الذين قاموا بنشر الإسلام في بلاد السودان الأوسط، بل يُعدُّ أعظمهم،

^٩ المصدر السابق، ص: ٩٦.

وقدّم في هذا المضمّار ما لم يسبقه أحدٌ، ولم يأت بعده من يقوم بهذا الدور، وقد وصفه مؤرّخ بلاط كانم أحمد بن فرّتوا في كتابه تاريخ إدريس ألّوماً وغزواته فقال: وكان السلطان إدريس ألّوماً شديد التمسك بالكتاب والسنة، شديد الكراهية لأهل البدعة والمحدثات، ولقد حكم بالكتاب والسنة في عهد ملكه وسار على نهج إسلامي خالص.^{١٠}

وبفضل الجهود التي بذها سلاطين المملكة أصبح الإسلام منتشرًا في جميع أرجاء المملكة، حتى أصبحت ركيزة الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا.

إلا أن هذه الدولة قد شهدت تحولات كثيرة أدت إلى ضعفها وسقوطها، الأمر الذي أثر سلباً على الوضع

^{١٠} المصدر السابق، ص: ١٠٧.

الديني في المنطقة، ومن أهم هذه التحوّلات "الصراعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة على كرسي السلطان، مما أدّى بهم إلى الضعف والهوان"^{١١} ومنها انتقال الحكم من الأسرة السيفيّة إلى الأسرة الكامنيّة، والتنافس على السلطة بين الأسرة الكامنيّة، "والحقيقة أن شيوخ الأسرة الكامنيّة لم تكن لأحدٍ منهم قوّة ونفوذٌ جدّهم الشيخ الأمين الكامني"^{١٢} ومنها غزو رابح بن فضل الله وانتصاره على جيوش برنو، "وقد اتّسم حكمه في أول الأمر بقسوة واضحة في كل مكانٍ من برنو، وبخاصّة في المدن التي تحوّلت إلى أنقاضٍ، كما أن الفقر الاقتصادي أصاب البلاد"^{١٣}.^{١٣} ومنها الاحتلال الأوربي للمنطقة، حيث "أصبحت برنو منذ عام ١٨٩٠م محور

^{١١} المصدر السابق، ص: ٢٨٧.

^{١٢} مصطفى أبوشعيب، برنو في عهد الأسرة الكامنية، ص: ٦١.

^{١٣} المصدر السابق، ص: ٦٥.

نزاع كبيرٍ بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا^{١٤}. فصار من الطبيعي أن تكون لهذه التحوُّلات في الفترات المتتالية تأثيراتٌ سلبيةٌ على الأوضاع في منطقة برنو عامَّة، والوضع التعليمي منها على وجه الخصوص، والإسلامي على الأخص، لاسيما ما طرأ على هذه المنطقة فُبَيْل غزو رابع من انحطاطٍ ديني، حيث تخلَّى معظم السكان عن تعاليم الإسلام، وابتعدوا عن القيم الدينيَّة، كما أطلعنا على تلك الصورة الشيخُ غوني عليُّ الرقيَّاميُّ رحمه الله عبرَ أبياتٍ من قصيدته التي سمَّاها: "ذكر وقائع رابع" قائلا:

لما فشا الظلمُ لدى البرنوح

وعممَ العصيانُ كلَّ روح

^{١٤} المصدر السابق، ص: ٧٠.

وصار كلُّ الناس تابعينا

أمرَ الهوى والشرِّ فاعلينا

فأرسل الله عليهم راجحاً

من أرض خرطوم أتاهم فاتحاً^{١٥}

وعلى رغم ما في هذه الأبيات من المبالغة في استعمال
أداة كل - في كل روح و كلُّ الناس - التي تتناول
الأفرادَ المنتسبةَ إليها على سبيل التعميم الشمولي إلا أنها
تعكس صورة ما آلت إليه الأمور من الابتعاد عن
التعاليم الإسلاميَّة والأحكام الشرعيَّة؛ لذلك عبَّر
الشاعرُ عن الحالةِ الدينيَّةِ في تلك الحقبة الزمنيَّة من
أيام الدولة الكانميَّة التي عاشها في هذه الصورة

^{١٥} قصيدة "ذكر وقائع رابع" للشيخ علي الرقيامي مخطوط.

المجازية^{١٦} التي ظهرت فيها "كل" في غير المعنى الحقيقي الذي وُضِع لها في الحقول المعجمية؛ إذ إنها في الاستعمال الحقيقي تشمل الأفراد النوعية التي تنضاف إليها عن طريق الإحاطة بتلك الأفراد ووضعها في حصرٍ شموليٍّ واحدٍ، بحيث لا يخرج فردٌ من دائرتها الكلية إلا عن طريق استخدام أداةٍ من الأدوات الاستثنائية، لكنها تنصرف عن هذه التشميلية إلى استعمالٍ آخر عبر المجاز المرسل من خلال القرينة التي تقوم بالربط بين المعنى الأصلي الموضوع له، والمعنى الفرعي المجازي، وذلك عن طريق استخدام كل وسيلةٍ للتعبير عن الكثرة؛ إذ إن العلاقة بين كل والكثرة قويةٌ؛ لذلك اس تغلّ الشاعرُ هذه العلاقة فأطلق لفظ كل على الكثرة مجازاً، عبّر

^{١٦} المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح به التحاطب، على وجه يصح، مع قرينة عدم إرادة ما وضع له. ذكر هذا التعريف عبد الرحمن الميداني في كتابه: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها. ج: ١، ص: ٢٥٧

تلك الأبيات الساخنة، على غرار اتخاذ الأدباء
المبالغات البلاغية، والتجاوزات المجازية ركيذة قوية ووسيلة
مفضلة؛ لتطويع الألفاظ من أجل تصورات مجازية،
وإبداعات فنية؛ لقصد الإمتاع البياني، والتأثيرات
الجمالية، وذلك منذ العهد الموعلة من المراحل العصرية
التي قطعها الحياة الأدبية على أصدعتها الثرية
والشعرية، حيث تتبوأ الصور المجازية موقعا خصباً في
خريطة وسائل التصوير الفني من خلال استعمالها إلى
أقصى الحدود لتحقيق أغراض شعرية، ولا سيما أشعار
الشعراء المعلقين التي تُعتبر لبنات مهينة؛ لبناء هياكل
أدبية رصينة من جناحها الشعري على طراز رفيع،
حيث تحولت إلى نماذج شعرية، يُسار عليها في إنتاج
أعمال شعرية، ومحاكات إبداعات فنية، وتصورات

أدبيّة، خلال الفترات التاريخيّة التالية للأدب العربي،
وتُعتبر أيضاً من أفضل الطرق التي تُوصل إلى الحصول
على الوسائل التي تُمَرّن على معرفة أسرار اللغة العربيّة
وفهم أساليبها الخطابيّة، وتذوّق تراكيب جُمَلها التي
تظهر في صُورٍ اسميّة تارة، وصُورٍ فعليّة تارة أخرى. وقد
أفرزت هذه المكانة التي بلغها الأدب في الحقول العربيّة
عن تكوّن علاقة وثيقة بين علم التفسير والأدب العربي،
لاسيما الذراع الشعري منه؛ إذ شغل حيزاً واسعاً في
النشاطات التفسيرية وأثر في تكوين خطاباتها، وطرق
أدائها؛ حيث أولى جمعٌ غفيرٌ من المفسرين قديماً وحديثاً
اهتماماً بالغاً بالجانب الشعري عند قيامهم بعمل
التفسير، كما ظهر ذلك عند أهمّ رموزه من الرعيل
الأول: عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما الذي يُعتبر

المؤسس الأول للمدرسة الاستشهادية، واستخدام الأشعار العربية للقضايا التفسيرية، وقد أتضح ذلك بشكلٍ جليٍّ في حوارهِ التفسيري مع ابن الأزرَق^{١٧} حيث أدَّى ذلك الحوارُ إلى تطورٍ ملحوظٍ لعملية التواصل بين النص القرآني والشعري منذ وقتٍ مبكرٍ باعتبار الأشعار أداةً تعين على فهم معاني القرآن وإدراك مغزاه، وقد بقيت الاستشادات الشعرية نشطةً على الساحات التفسيرية عن طريق المساهمات المستمرة التي يقدمها علماء التفسير ومعاني القرآن في مؤلفاتهم المختلفة، ومن أشهرهم الإمام المفسر: محمد بن جرير الطبري في تفسيره: جامع البيان في تأويل القرآن،

^{١٧} أورد الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه: الإتقان في علوم القرآن ج: ١، ص: ٢٥٦ جانباً كبيراً من ذلك الحوار.

الذي كان للأبيات الشعرية حضورٌ مكثفٌ، وأدوارٌ بارزةٌ في بناء الجانب النظري من التفسير.

وقد مهّدت تلك التحوّلات العميقة في تركيب دولة كانم سبيلا لانتشار الجهل بأمر الدين في معظم أرجاء البلاد، وقيامه بقلب مفاهيم بعض المسلمين، وتغذية عاداتٍ يشتمل بعضها على أعمالٍ تؤدّي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى، وتحوّل دون تحقيق الشهادة التي هي أصل الدين ومفتاح الإسلام، والله المستعان.

تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله

بعد ما سبق عرضه من بعض التحوُّلات التي مرَّت بها منطقة برنو بعد دخول الإسلام، وما خلَّفته تلك التحوُّلات من انعكساتٍ سلبيةٍ على الوضع الديني، كان طبيعياً أن يتضرَّر البناءُ التوحيديُّ، لاسيما بعد ظهور عاداتٍ وتقاليدٍ سيئةٍ، تؤدِّي إلى الإِشراك بالله سبحانه وتعالى؛ لذلك كانت الدعوةُ إلى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله هي النقطة الأولى التي انطلق منها مشروعُ الشيخ الدعوي، وتركز عليها مرماه الإصلاحِي؛ ترميماً لما تضرَّر من بناء التوحيد، ولكون الشهادة هي أساس الدين الذي ينبنى عليه سائر العبادات، وتقوم عليه بقيَّة القربات.

وتتمثل الدعوة إلى تحقيق الشهادتين في المحورين،
الأول: بيان حقيقة معنى لا إله إلا الله، وذلك عن
طريق ترجمة معاني تلك الكلمة مع ذكر الشروط التي
يجب أن تتوفر في هذه الشهادة العظيمة.

الثاني: التحذير من الأمور التي تتناقض مع الشهادة،
لاسيما العادات والتقاليد التي تشتمل على أمورٍ تؤدّي
إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

وقد حظيت هذه القضية بمساحة واسعة، وميدانٍ
فسيح من دروس الشيخ ومحاضراته، لاسيما في أثناء
ترجمته للمعاني القرآنية التي يتم تسجيلها ونشرها في
داخل منطقة برنو وخارجها، فما من شريطٍ إلا وفيه
دعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة
له، أو تحذيرٍ من الشرك وبيان خطره، واستمع إلى أيّ

شريطٍ من أشرطته فستجد الحديثَ عن المسائل التي تتعلق بالعقيدة يتكرّر بين حين وآخر، سوء كان الشريطُ محاضرةً عامّةً، أو برنامجَ الإذاعة والتلفزيون، أو تدريسَ كتابٍ، أو ترجمةً قرآنيةً، ويرجع سبب هذا الاهتمام البالغ إلى الظروف التي يعيشها المجتمعُ البرنوي عند استهلال دعوة الشيخ من ركودٍ عقدي وتخلُّفٍ توحيدي، حيث تنتشر ظاهرةُ الإِشراك بالله سبحانه وتعالى مع أنه مجتمعٌ مسلمٌ من خلال بعض العادات والتقاليد؛ لسبب الجهل بأحكام الدين، وعدم معرفة خطر هذا الذنب الذي يُجَلِّد مرتكبه في النار، قال الله سبحانه تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ).

المائدة: ٧٢ فقام الشيخ بدود عن التوحيد؛ وذلك من

خلال بيان حقيقة التوحيد التي غابت عن كثير من الناس بسبب الجهل؛ لينقذهم من الشرك الذي وقعوا فيه.

وهذا الاهتمام الذي أولاه الشيخ بالجانب العقدي إنما هو قبس من نور القرآن وومضة من شعاع التنزيل، فقد قال الله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) النحل: ٣٦. وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) الأنبياء: ٢٥ فالهدف الرئيس من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو تحقيق التوحيد واجتناب الشرك، وعلى هذا الأساس بنى الشيخ رحمه الله هيكلية دعوته، فكان الحديث عن التوحيد هو السمة البارزة والصبغة المهيمنة على دروسه عامة، ومجالسه التفسيرية

على وجه الخصوص، حيث يقوم بمعالجة هذا الموضوع معالجةً دقيقةً من خلال الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن التوحيد، والتي يترجمها إلى اللغات المحليّة بطريقةٍ سهلةٍ وأسلوبٍ جذابٍ، يتأثّر به الحاضرون، ذلك التأثير الذي كاد أن يغيب عن المجالس العلميّة الأخرى وقتئذ، ليس لغياب بعض الوسائل الدعويّة المتوفّرة لدى الشيخ فحسب، ولكن لوجود بعض أمورٍ تُنقِر عن تلك المجالس؛ وذلك كاستخدامهم لأسلوب "ترجمو"^{١٨} عند القيام بترجمة الألفاظ العربيّة إلى اللغة الكانوريّة، وسيأتي الحديث عن هذا الأسلوب بشكلٍ مفصّلٍ إن شاء الله تعالى.

^{١٨} كلمة كانورية مأخوذة من الكلمة العربية "الترجمة"، وتعني: الترجمة بطريقة خاصة وتغلب عليها الحرفية، وسيأتي الحديث عنها لاحقاً إن شاء الله.

وفي أثناء هذه الترجمة يقوم الشيخ بربط الآيات التي يترجمها بالواقع الذي يعيشه الناس، والحاضر الذي يعاصرونه، فيذكر العادات التي تتضمن في طياتها الإشراك بالله، مستخدماً في الوقت نفسه الحكمة والموعظة الحسنة؛ لأن أغلب العادات التي يُرتكب هذا الذنب الخطير من خلال ممارستها كانت ملتصقة بالأمور المشروعة والمباحة، كالزواج والعقيقة والتجارة والحِداد، الأمر الذي يستوجب استعمال قدر كبير من الحكمة الدعوية في أثناء القيام بعملية المعالجة.

وعلى هذا النحو سار أسلوب الشيخ في أثناء ترجمة القرآن، حيث يسعى إلى ربط آياته بحياة الناس وواقعهم لئلا ينزوي القرآن في زاوية الحفظ أو التلاوة فقط، بل لابد من أن يكون له دورٌ فاعلٌ في توجيه مسار الحياة،

بحيث يكون دستوراً يُحتكم إليه في الأمور الدينيّة والدينيويّة، ويتخذ سبيلاً لتحقيق سعادة الدارين، ويجعل بلسماً حقيقياً لإزالة أمراض القلوب، وعلل النفوس، ولا سيما العلل العقائديّة التي تعاني منها منطقة برنو، ولا يتأتّى ذلك إلا بتعليم الناس معاني القرآن عن طريق ترجمتها إلى اللغات المحليّة التي يفهمها ساكنوا هذه المنطقة فهماً صحيحاً، وقد مدّ هذا الأمر جسراً قوياً فوق الهوة التي فصلت القرآن عن واقع الناس وحياتهم، حيث ازداد تطبيق الأحكام الشرعيّة، واجتناب العادات الشركيّة والتقاليد البدعيّة، والإقبال على المجالس التفسيريّة، والعلميّة واستماع للأشرطة الدينيّة.

كما أن ربط القرآن بالواقع يؤدّي دوراً فاعلاً في إزاحة الأباطيل التي يروّجها المستشرقون ومن حذا حذوهم من

العلمائين وغيرهم من تاريخية النصوص القرآنية أو بيئية آياته، فكأن القرآن - على حدّ زعمهم الباطل - كتابٌ يُؤرّخ عن وقائع الأمم السابقة، وأحداث القرون الغابرة، أو أن آياته لا تتناسب إلا مع البيئة المكّية والمدنيّة التي نزلت فيها، بل إن القرآن الكريم يتناسب مع كل زمانٍ ويتلاءم مع أيّة بيئة؛ لكونه تنزيل اللطيف الخبير الذي لا يضلُّ ولا ينسى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد أصّل القرآن الكريم قواعدَ عامّةً، تفرّعت عنها تكتّلاتٌ ضوابطيّةٌ عريضةٌ، متراميةُ الأطراف، تضمُّ القضايا المعاصرة من مشاكلٍ مستجدّةٍ، ونوازل متجدّدةٍ على مرّ العصور والزمان؛ فتقدّم لها حلولاً مناسبةً، وعلاجاً فعّالاً، عبر الدلالات التعميميّة التي تتناول

أفرادها على سبيل الشمول، وذلك مثل النكرات في سياقات النفي، والنهي، والشرط، والاستفهام، والامتنان وغير ذلك من وسائل التعميم، أو عبر الإشارات الإطلاقيّة التي تمسُّ منتسبها على سبيل البدل كالنكرات في سياقات الإطلاق، أو غير ذلك من الأدوات الدلاليّة التي تُفرزها منظوماتُ تشكيل الألفاظ التي تتكوّن منها بنيةُ التراكيب الجمليّة للنصوص القرآنيّة، والتنسيقات السياقيّة لها من إذاعة مشمولات الدلالات، ومدّ باحاتها التناوليّة، ومناطقها الاستغراقيّة. أو عن طريق النظر إلى العلل القياسيّة التي أناط الشارع بها الأحكام، سواء أكانت العللُ منصوصةً عليها من قبل الشارع؟ أو استنبطها فحولُ من العلماء الذين استوفروا شروطَ الاجتهاد، وامتطوا صهوةَ أدواته، وتمكنوا

من إمساك زمامه عن طريق التعمق العميق في معرفة الأصول والفروع من الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والقضايا اللغوية؛ لتوسيع مجاري الأحكام الأصلية وإفساح مجالها للقضايا المستجدة، والنوازل العصرية، ثم إصدار الأحكام المناسبة لها؛ للعلة التي تجمع بينها وبين الأحكام الأصلية، والأسباب التي أدت إلى تشريعها، وذلك بعد القيام بالعملية التصويرية التي تؤدي إلى التكييف الفقهي والمعرفة الحقيقية للأصل الذي تنتمي إليه نازلة، والتعرف الدقيق على الواقع المحيط بها، وقد ألمح إلى ذلك القاضي أبو الوليد ابن رشد في مقدمة كتابه القيم: **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** في أثناء الحديث عن الأسباب التي حملته على تأليفه حيث ذكر من الأسباب: " التنبيه على نكت

الخلاف فيها، ما يجري مجرى الأصول والقواعد لما عسى أن يرد على المجتهد من المسائل المسكوت عنها في الشرع^{١٩}

وقد ثبتت من ذلك كِلِه عالميَّة الرسائل التي يحملها القرآن الكريم وصلاحيَّتها لكل زمانٍ ومكانٍ، وكونها ميزاناً تُقاس به عاداتُ كلِّ عصرٍ ومصرٍ، وأنها مزوَّدةٌ بعناصرٍ فعَّالةٍ، تضمن لها البقاء والاستمراريَّة، بحيث لا ينضبُ معيَّنها، ولا ينفدُ عطاؤها؛ تنفيذاً لوعد الله القائل:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر: ٩. ومن ثمَّ انبثقت قواعدُ أصوليَّةٌ عديدةٌ تُثبت هذه الحقيقة، وتدعو إلى استغلال فنونها وأفنانها في معالجة القضايا العصريَّة الجديدة، والمعضلات الحديثة المستجدَّة، ومن

^{١٩} ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ط: دار الكتب العلميَّة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج: ١، ص: ٣٢٥.

تلك القواعد قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقاعدة: الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا، وغير ذلك من القواعد التي تؤكد هذا الأمر، وتُعلن أحقيته في محافلٍ مختلفةٍ.

وقد اعتُبرت هاتان القاعدتان من القواعد الأساسية العديدة التي تُستعمل أصولياً للتعامل مع النوازل العصريّة، وإخضاعها للنوامس التي تُفرضها القيود الشرعية، والقواعد الإسلامية، كما أن في استخدام القواعد الفقهية وتفعيل المقاصد التشريعية أدواراً أساسية في إثبات دستورية القرآن الكريم وكونها المرجعية الحقة التي يجب أن يُفزع إليها؛ للبحث عما تنضبط به القضايا العالمية عامّة، والمشاكل التي تحيط بالأمة الإسلامية على وجه التحديد.

ويُعتبر الشيخُ رحمه الله من أبرز الرموز الدعويَّة التي وضعتُ هذه القضيةَ على المنصَّة التطبيقية في هذه المنطقة، حيث اعتمد على القرآن الكريم والسنة النبويَّة في صياغة أعماله الدعويَّة عامَّة، ومحاربة عاداتٍ تشتمل على أعمالٍ تتنافى مع حقيقة التوحيد، وتُؤدِّي إلى الإِشراك بالله سبحانه وتعالى على وجه الخصوص.

ومن أبرز العادات التي تشتمل على مخالفتِ عقديَّة ما يسمَّى بـ "كلاو" kalawa باللغة الكانوريَّة، وهي عادة مرتبطة بالزواج، تمارس في اليوم الثاني من عقد النكاح، وتكون غالباً بعد صلاة الظهر إثر تناول طعام الوليمة، حيث يُجعل ورقة نبتةٍ معروفة بـ "كُول بُل" ٢٠ kaulu bul في الماء فيمسح به يدي العروسين، ثم

٢٠ هكذا اسمها باللغة الكانورية، ولم يتم العثور على اسمها في اللغة العربية .

يوضع عليهما شيءٌ من طعام الولية، كما يُقدّم لهما الهدايا المائيّة وغيرها، تتراوح بين القلّة والكثرة؛ حسب القوة القرابيّة التي تجمع بين من يقدّم الهدية والعروس، يقوم الأبُّ بهذه العمليّة أولاً، ثم الأم، ثم الأقربون؛ اعتقاداً منهم بأن ممارسة هذه العادة تُمدّد في الحياة الزوجيّة، وتبارك في الرزق الذي يحصل عليه الإنسان بعد الزواج، ومن الغريب أن إمامَ مسجدِ الحارة هو الذي يقوم بالإشراف على إقامة هذه العادة والتأكّد من سيرها على وفق المعهود، كما أن من الغريب أيضاً أن هذه الورقة النباتيّة التي تُستعمل أداةً أساسيّةً في القيام بهذه العادة، ويُعتقد فيها هذا الاعتقادُ الباطلُ تُستعمل أيضاً عنصراً أساسياً من العناصر التي يتكوّن منها نوعٌ من أنواع الإدام يُشبه الملوخيّة، وإن كان

استعماله إداماً قلّ في هذه الآونة نتيجة التمدّن، إلا أن هذا العنصر الإدامي الذي قد يكون العروسان أو أحدهما تناوله ضمن وجباته الطعامية في وقتٍ قريبٍ تحوّل إلى شيءٍ مقدّسٍ يمدّد في العمر، ويجلب الرزق! والله المستعان.

وقد قام الشيخُ رحمه الله بالتنبيه على المخالفات التي تتضمنه هذه العادة في أثناء ترجمة الآيات القرآنية، لا سيما الآيات التي تتحدّث عن إفراد الله تعالى بالعبادة أو تحذّر من الشرك، مستخدماً قدراً كبيراً من الحكمة والموعظة الحسنة؛ إذ إن هذه العادة وإن كانت تشتمل على مخالفاتٍ عقديّةٍ إلا أنها مما أُلصقتُ بالزواج؛ فالتمييز بينها وبين الأمور المشروعة أمرٌ يصعب على من لم تكن له درايةٌ كافيةٌ بالأحكام الإسلامية، لاسيما

العوامّ الكانوريين الذين يفتخرون بأجدادهم الذين أسّسوا الدولة الإسلاميّة، ويعتبرون جميع العادات والتقاليد الكانوريّة مستمدّةً من الشريعة الإسلاميّة، حتى إن بعض من ينتسب إلى العلم ينزلق في هذه الهوّة - نسال الله السلامة- فمواجهة مثل هذه العادة في مثل هذا المجتمع المحافظ بالعنف يسبّب العنف المضاد ورفض ما يحاول الداعية إيصاله من الرسائل الإصلاحيّة.

ولما كان الشيخُ يمتلك رصيذاً كبيراً من الحكمة والصبر والتواضع ورحب الصدر استطاع - بفضل الله تعالى - اجتثاث عروق هذه العادة واستئصال أصولها؛ فصارت يابسةً في بعض أرجاء برنو، بينما التحقتْ إلى قائمة العادات المفقودة في معظم أرجائها؛ إذ تجد من الناشئة

من لا يعرف هذه العادة ولا سمع بها، حتى إن الشيخ نفسه لم يعد يتحدث عن هذه العادة كثيراً في المراحل المتأخرة التي مرت دعوته؛ لما رأى من اختفائها.

ومن المؤسف جداً أنه وُجد ممن ينتمي إلى العلم من الذين عاصروا الشيخ مَنْ قام بالدفاع عن هذه العادة، مع أن كل من ينظر إليها بمنظور العلم، وعين الإنصاف يستقرُّ في نفسه أن هذه العادة تصطدم مع حقيقة التوحيد، لكن بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بما بذله الشيخ رحمه الله من جهودٍ دعويةٍ متواصلةٍ من التحذير من الشرك وبيان حقيقة التوحيد اختفت هذه العادة؛ فله الحمد في الأولى والآخرة.

ومن العادات التي حاربها الشيخُ أيضاً **الطواف** حول بعض الأشجار لجلب المنافع ودفع المكارهِ؛ لاشتمالها

على أعمالٍ تُؤدِّي إلى الإِشراك بالله عز وجل، وتُمَارَس هذه العادة في بعض أرجاء برنو كـ "كوكاو" kukawa و"غوزامال" Guzamala في الشمال، و"غُمبُورُو انغلا" Gambaru Ngala وهذه العادة أُلصقتْ كسابقَتها بالنكاح، حيث يُطاف بالبت حول الشجرة فُبَيَّل أن تُزفَّ إلى بيت زوجها، وحدثني بعضُ من سكن "غُمبُورُو انغلا" أنه إذا لم تتمكَّن البنتُ من هذا الطواف قبل الزفاف فلا بد من أن تقوم به ولو بعد الزفاف، وكأن الطواف حول هذه الأشجار شرطٌ من شروط الزفاف، غير أن هذه العادة قد اندثرت كسابقها ولم يكن لها وجودٌ، فله الحمد.

وهناك أمور كثيرة منتشرة يمارسها أهلُ هذه المنطقة، حدَّر منها الشيخُ لانتوائها على أعمالٍ تُؤدِّي إلى

الإشراك بالله سبحانه وتعالى، كعدم الزواج والتزويج في شهر صفر، وتعليق قرن الخروف على أبواب البيوت والدكاكين؛ لوقايتها من السرقة، وتعليق التمام التي كُتِبَتْ عليها أسماء الجن وغيرها بالأعناق والبيوت، والمحلات التجارية، والدكاكين السوقية، ومنها عدم تقلم الأظافر يوم الثلاثاء، وعدم السفر في بعض أيام الأسبوع، ومنها بعض العادات التي تُمارسها النساء خلال فترة ما بين ولادة الطفل إلى التسمية، وما تُمارسها المرأة المتوفى عنها زوجها من العادات المخالفة للعقيدة الإسلامية خلال المدّة التي تقضيها في فترة الحداد.

وخلاصة الكلام: إن الشيخ لم يترك شيئاً يصطدم مع التوحيد مما نُمي إلى علمه من العادات والتقاليد في هذه

المنطقة إلا وقد بيّنه وحذّر منه، سواء كان جلياً أو خفياً، أما الجلي فمنها ما سبق ذكره، وأما الخفي فكل من يستمع إلى أشرطته فسيجده يحذّر من أمورٍ خفيّةٍ - قد يجهلها السامع - تتخلّل بعض العادات والتقاليد وتنطوي على أشياءٍ تؤدّي إلى الإِشراك بالله سبحانه، فنذكر على سبيل المثال تحذيره من مخالفاتٍ عقديّةٍ خفيّةٍ تُرتكب في أثناء غسل الميت خلال ممارسة بعض العادات، وقد حذّر الشيخ رحمه الله من هذه العادة في مناسباتٍ عديدةٍ، منها عند ما يترجم قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) النساء: ١٠، ٢١^{٢١} وكأنه أوتي مجهرًا كشافاً أو عدسةً مكبّرةً لرصد المخالفات

^{٢١} الجدير بالذكر أن الشيخ لا يذكر التواريخ عند ما يفتتح دروسه ومحاضراته ؛ لذلك يصعب تحديد تواريخ دروسه.

العقدية التي تحتفي وراء بعض العادات والتقاليد البرناوية.

ومن الجدير بالذكر أن الكثير الأكثر والمعظم العظام من الذين يرتكبون هذا الذنب في أثناء ممارسة بعض العادات والتقاليد لا يتفطنون لخطره، ولا ينتبهون لحجمه؛ وذلك لقلّة معرفتهم بالأحكام الإسلامية من جهة، ولخفاء الشرك من جهة أخرى؛ فالواجب على أهل العلم والدعاة التنبيه المستمر على هذه المخالفات، والتوعية المتواصلة لخطرها.

كما أن من الجدير بالذكر أيضاً أنه لم تنصهر العادات كلها في بوتقة تشميلية واحدة، بل إن هناك سيولا جرّارة من العادات والأعراف البرناوية التي لا تشمل على المخالفات العقدية أو غيرها؛ لذلك صارت من

ضمن الأمور المباحة؛ بناء على أن الأصل في العادات الإباحة، وأخذاً للتيسير الإسلامي في مراعاة ميول الإنسان ورغباته، وما دأب عليه وألفه ما لم تتضمن مخالفةً شرعيةً؛ فيحكم عليها حسب حجم المخالفة التي تضمنتها.

وقد حظيت العادة السليمة بمسافةٍ فسيحةٍ من الأهمية في الحقل الفقهي لدرجة جعلها مرجعاً فقهيّاً من خلال تخصيص قاعدةٍ من بين القواعد الفقهية الكبرى؛ لتقوم بالوظيفة التحديدية لبعض الأحكام الشرعية التي جاءت في صورةٍ مطلقةٍ عبر تقييدها بالعادات التي اطّردت وتعارفها الناس من خلال الدأب المستمر على ممارستها، ولم تشمل على مخالفةٍ شرعيةٍ تمنع الرجوع

إليها، وهي قاعدة " العادة محكِّمة " ٢٢ أي: معمولٌ بها.

وذلك نظراً لأهميّة العادات المطّردة وأثرها في التشريع الإسلامي من جهة، وتوسيعاً لدائرة سماحة الإسلام، واهتمامه بقضايا الإنسان من جهة ثانية، قال الإمام عبد الرحمن السعدي رحمه الله في منظومته:

" والعرفُ معمولٌ به إذا وُرد

حكمٌ من الشرع الشريف لم يُجد ٢٣

وذلك مثل الإحسان إلى الولدين، والمعاشرة الزوجيّة، وصلة الأرحام، وأخذ الزينة عند الصلاة، وتحديد الحرز في المال المسروق، وإكرام الضيف وتحديد الجوار، وغير

٢٢ السيوطي، عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، ط: ١ درا الكتب العلمية ١٤١١ هـ - ١٩٩٩ م، ص: ٨٩.

٢٣ السعدي، عبد الرحمن، القواعد الفقهيّة لفهم النصوص الشرعية، دار البصيرة - الإسكندرية (دت) ص: ٣١.

ذلك من الأمور التي يُرجع إلى العادة في تحديدها؛ إذ إن الشرع أطلق إحساناً إلى الوالدين - مثلاً - والإحسان إليهما، وإلى ذوي القربى يختلف من بلدٍ إلى آخر، ومن بيئةٍ لآخر؛ لذلك تُحكّم عادةُ أهل البلد وأعرافهم في تفسير الإحسان وتحديد ماهيته، وبيان الكيفية التي يظهر فيها.

كما أن هناك صوراً عديدةً تتعلق بقضايا المعاملات جُعِلت العادةُ حكماً في تحديد إطلاقاتها، ومرجعاً للفصل عند التنازع فيها.

وثمة نماذج تطبيقيةً من مسائلٍ فقهيةٍ حفلت بها كتبُ الفقه على اختلاف أصحابها في الموارد الأصولية، والمشارب المذهبية، قال علاء الدين: محمد بن أحمد السمرقندي الحنفي رحمه الله: "وَلَوْ حَلَفَ لَا يَدْخُلُ دَارَ"

فَلَانَ، فَدَخَلَ دَارًا هُوَ سَاكِنُهَا بِالْمَلِكِ أَوْ بِالْإِجَارَةِ أَوْ
بِالإِعَارَةِ، فَهُوَ سَوَاءٌ وَيَجْنُثُ؛ لِأَنَّ الدَّارَ تُضَافُ إِلَى
الْمُسْتَأْجِرِ وَالْمُسْتَعِيرِ فِي الْعَرَفِ " ٢٤

وقال الإمام خليل بن إسحاق المالكي رحمه الله:
"وَحِمِلَتْ فِي طَرَحِ كِنَاسَتِهِ عَلَى الْعَرَفِ، وَلَمْ تُطْرَحْ عَلَى
حَافَتِهِ إِنْ وُجِدَتْ سَعَةً" ٢٥ وقال الإمام النووي الشافعي
رحمه الله: " أَنْ مَا أُطْلِقَ وَلَمْ يُجَدَّ رَجَعَ فِي ضَبْطِهِ إِلَى
الْعَرَفِ، كَالْقَبْضِ فِي الْبَيْعِ، وَالْحَرْزِ فِي السَّرْقَةِ، وَإِحْيَاءِ
الْمَوَاتِ " ٢٦ وقال ابن قدامة من الحنابلة رحمه الله في
أثناء الحديث عن ضابط العمل اليسير والكثير في
الصلاة: " وَالْمَرْجِعُ فِي الْيَسِيرِ وَالْكَثِيرِ إِلَى الْعَرَفِ مِنْ غَيْرِ

٢٤ علاء الدين السمرقندي، تحفة الفقهاء، ط: ٢ دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ج: ٢، ص: ٣٣٨.

٢٥ خليل بن إسحاق، مختصر خليل، ط: ١ دار الحديث - القاهرة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م، ص: ١٠٦.

٢٦ النووي، المجموع شرح المهذب، دار الفكر، ج: ١، ص: ٢٥٩.

تقدير بالخطوة والخطوتين" ^{٢٧} وقال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: "من دخل حمّامٍ حمّاميٍّ، أو ركب سفينة زُبّانٍ، فإنه يلزمه الأجرُ بناءً على العرف" ^{٢٨} إلا أن الوظيفةَ التحدیدیّةَ التي يقوم بها العرفُ تقتصر على ميدان الأحكام المطلقة من خلال تقييدها بما تعارفه الناسُ وصارتُ عليه عادتهم المطرّدةُ على نحو ما مرَّ التوضیحُ في الأمثلة النموذجیّة السابقة، مع بقاء الأحكام المطلقة على أوضاعها الشرعیّة وصورها الأصليّة، بحيث لا يقوم العرفُ بتغيير حکمٍ من المأمور به إلى المنهي عنه، أو من تحریمٍ إلى الإباحة، قال أحمد بن غانم الأزهري المالكي رحمه الله: "وأما الأحكام المنصوصةُ عن الشارع كتحریم الخمر والزنا فلا ينظر إلا

^{٢٧} ابن قدامة، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط: ١: دار الفكر - بيروت ١٤٠٥هـ، ج: ١، ص: ٦٧٥.

^{٢٨} ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ط: ١: دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ج: ٦، ص: ٢٧٠.

لما ورد عن الشارع، ولو خالفه العرفُ والعادة؛ لأنها من العوائد الفاسدة، والعرف لا يُعَوَّل عليه إلا فيما هو مبنيٌّ على الشرع، فافهم فإنها قاعدة عظيمة^{٢٩} كما أنه ليس للعادة حقُّ تقيديٍّ ولا نشاطٌ تحديديٌّ في الأحكام التي وردت بقيودها الشرعيَّة، وذلك مثل الصلوات الخمس التي جاءت مقيَّدةً بأوقاتها الشرعيَّة في قول الله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) الإسراء: ٧٨ كما جاء توقيتها أيضاً بشكلٍ أكثر وضوحاً في أحاديث نبويَّة عديدة، منها الأحاديث التي رواها الإمام مالكٌ رحمه الله تعالى في مفتاح موطئه في "كتاب

^{٢٩} أحمد بن غانم الأزهرى، الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيرواني، ط: ١ دار الفكر ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، ج: ١، ص: ٤١٨.

وُقُوت الصلاة " ٣٠ فلا يقبل تحديداً وقتي آخر تُقدمه العادة أو العرف.

كما أن الفقهاء قيّدوا تحكيم العادة بشروطٍ وضوابطٍ يجب أن تتوفّر فيها قبل تكليفها المهمة التحديديّة، وذلك كي ينضبط سيرها إلى الاتجاهات التي تُحقّق المصالح الشرعيّة العامّة، ولا تتصادم مع أهدافها الأساسيّة؛ فكان من الطبيعي أن يتصدّر قائمة تلك الشروط: **عدم اشتمال العادة على مخالفة شرعيّة، لا سيما المخالفات العقديّة التي حدّر منها القرآن الكريم في كافّة الصور التحذيريّة، وقطّع جميع السبل الموصلة إليها، قال الإمام السرخسي رحمه الله: " وكلُّ عرفٍ ورد النصُّ بخلافه فهو غير معتبر "** ٣١

٣٠ مالك ابن أنس، الإمام، موطأ الإمام مالك، ط: ٢ المكتبة العلمية (د ت)، ج: ١، ص: ٣١.
٣١ السرخسي، المبسوط، ط: ١ دار الفكر بيروت لبنان ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ج: ١ ص: ١٤٦.

وقال عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

" والأصل في عاداتنا الإباحة

حتى يجيء صارف الإباحة"^{٢٦}

وصوارف الإباحة هي المخالفات الشرعية التي توجد في بعض العادات، وهي كثيرة، وقد تكون خفية لا يتفطن إليها إلا الدعاة المخلصون الذين يدعون على طاعة الله ويحذرون من اتباع الشيطان، ويستشعرون بالمسئولية الدعوية، ويتحملون الأعباء الإصلاحية.

ومما يجب اعتباره عند تحكيم العادة أيضاً الاطراد، وهو أن يكون العمل به مستمرا في جميع الحوادث، ومعروفاً في أرجاء البلاد كلها أو مناطق معينة منها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " إن العرف المطرد على حال، جار

^{٢٦} السعدي، عبد الرحمن، المصدر السابق، ص: ٢٦.

مجرى الشرط بالمقال^{٣٣} وقال السيوطي رحمه الله: " تُعتبر العادةُ إذا اطَّردتْ فإن اضطربتْ فلا " ^{٣٤}

ويتضح مما سبق جلياً أن إنكارَ الشيخ رحمه الله على تلك العادات التي تَمَّت الإشارة إليها قمينٌ أن يكون إنكاراً صحيحاً؛ إذ إنها تَضَمَّنَتْ أعمالاً تُؤدِّي إلى مخالفاتٍ شرعيَّةٍ، كما اتَّضح أيضاً أن احتجاجَ بعض من ينتسب إلى العلم على الشيخ رحمه الله بأن ما حاربه عاداتٌ تعارفها الناسُ احتجاجٌ يرفضه المعقولُ والمنقولُ؛ لما سبق من اشتمال تلك العادات على مخالفاتٍ شرعيَّةٍ، وكذا احتجاج بعض العوامِّ بأن قبيلةَ كانوري قبيلةٌ متجذرةٌ في الإسلام؛ فكانت للعادات التي دأبت على ممارستها جذورٌ إسلاميَّةٌ - احتجاجٌ مرفوضٌ أيضاً؛

^{٣٣} المصدر السابق، ص: ٢٩٤.

^{٣٤} المصدر السابق، ص: ٩٢.

لأن ذلك لا يُؤهّل العاداتِ إلى قبولها واعتبارها حسنةً، ولا يوجب احترامها والعمل بها من دون إجراء فحوصاتٍ شرعيّةٍ، وإخضاعها للشروط القبوليّة؛ للتأكد من سلامتها من مخالفاتٍ عقديّةٍ، واستكمالها الشروطِ المعترّةَ فيها.

والخلاصة: أن استصحاب الأصل في إباحة العادات وفتح أبواب ممارستها على مصراعيها من ناحيةٍ، واعتبار صلاحيتها في القيام بالوظائف التقيديّة لبعض الأحكام الشرعيّة المطلقة من ناحيةٍ أخرى منوطٌ بخلوّها من المخالفات الشرعيّة، وخصوصها للضوابط الإسلامية مع عدم وجود نصٍّ في القضية؛ إذ لا مساعٍ للاجتهاد مع توفّر النصِّ. والله أعلم.

تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأما دعوة الشيخ إلى تحقيق هذه الشهادة، والجهود التي
بذلها من أجله فيمكن أن تتلخّص في **النقطتين**:
الأولى الحثُّ على التمسُّك بالسنة المحمدية والدعوة إلى
تطبيقها في جميع المجالات. **الثانية** التحذير من البدعة
وبيان خطورتها والتفريق بين الأمور المشروعة وبين البدع
المحدثة؛ وذلك لأن **الجهل** بأمور الدين قد سيطر على
غالب سكان هذه المنطقة؛ فأحدث مناخاً ملائماً،
وجواً مناسباً لانتشار البدعة ومحدثات الأمور باسم
الدين، إذ لا يتمكن الجاهل من التمييز بين السنة
والبدعة، ولا أن يفصل بين الأمور المشروعة والمحدثة،
علاوة على ذلك أن أغلب الشخصيات التي تُنيط
الدولة عليهم الإشراف على الشؤون الإسلامية يجهلون

جانباً كبيراً من الأحكام الشرعيّة بما فيها أحكام البدعة، الأمر الذي تنعكس سلباً على المسيرة التي تُوصَل إلى تحقيق هذه الشهادة في صورةٍ كاملةٍ، كما أنه يفتح الباب على مصراعيه لإدخال البدع في الأمور الدينيّة، وممارسة بعض أمورٍ تشتمل على بدعٍ باسم الدين، كما أن للعامل الاقتصادي دوراً لا يُستهان به في ظهور بعض البدعة واستمرار بقاء بعضها الآخر على الساحات الدينيّة، والممارسات العرفيّة؛ وذلك أن بعض الذين ينتسبون إلى العلم يعتمدون اعتماداً شبه كليّاً على الآخرين في قوتهم اليوميّة وحاجاتهم الأساسيّة، وقد حملهم هذا الأمر على اختراع بدعٍ تكون مصدراً من المصادر التي تُوقّر لهم الرزق من جهةٍ، وبذل

قصارى وكدهم في إبقاء بدع على الساحات من جهة ثانية.

كان لتلك العوامل ولغيرها دورٌ كبيرٌ في ثني الناس عن اتباع السنة المحمديّة، وصدّهم عن التمسك بهدي خير العباد عليه الصلاة والسلام، وانجرارهم وراء أمورٍ بدعيّة. ولما كانت المواجهة الحقيقيّة يجب أن ترتقي إلى مستوى ما يحدث كان طبيعياً أن تأخذ هذه القضية قسطاً كبيراً من مجهودات الشيخ الدعويّة، وطاقاته الإصلاحية؛ لأجل إحياء السنن ونشرها بين الناس، وذلك عن طريق تعليم الجمهور السنّة النبويّة وحثّهم على تطبيقها في جميع المجالات: العبادات والمعاملات، وتدرّيس بعض الكتب الحافلة بالسنة النبويّة القويّة والفعليّة والتقريّة ككتاب موطأ للإمام مالك، وكتاب بلوغ المرام لحافظ

ابن حجر العسقلاني، وكتاب رياض الصالحين للنووي،
رحمهم الله جميعاً. وغير ذلك من الكتب الحديثية
المشحونة بالسنة النبوية.

وقد حذر الشيخ رحمه الله تعالى من بدع كثيرة يفعلها
المسلمون في هذه المنطقة في مناسبات عديدة، ومن
أبرزها:

الذبح في اليوم الثاني من الوفاة، وقد كان تحذير
الشيخ من هذا الأمر متكرراً؛ فهو مع كونه بدعة كان
أيضاً باباً من الأبواب التي تُمكن الدخول على أموال
الورثة بغير إذن شرعي؛ إذ إن شراء الذبيح يكون غالباً
من التركة، والشرع لم يأذن للدخول على التركة إلا
للأفراد الأربعة التي تكوّنت منها مجموعة تدوم، وهي:
تجهيز، دين، وصية، ميراث، على شكل هذا الترتيب،

مع التفصيل الذي ذكرته الكتب الفقهية في الوصية، حيث إن الوصية يجب أن تُنقذ ما دامت في حدود ثلث التركة، لكنها إذا تجاوزت الثلث فإن تنفيذها يتوقف على إجازة الورثة، فإن لم يجزوا عادت الوصية إلى الثلث، ومن العلماء من يرى بطلان الوصية التي تجاوزت الثلث؛ لورود النهي عن ذلك في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ بناء على أن النهي يقتضي الفساد، كما أن تنفيذ الوصية إنما تأتي بعد الفراغ من قضاء الدين على نحو ما كان الترتيب في مجموعة تدوم السابقة، وأما تقديمها على الدين في قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ) النساء: ١١ فمن باب الإشارة إلى أهمية الوصية، وتنبه الورثة على أحقية تنفيذها وعدم التهاون في شأنها، وذلك لانعقاد

الإجماع على تقديم الدين على الوصية، فال ابن كثير رحمه الله: "أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدّم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة" ٣٥ كما نقل هذا الإجماع أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره حيث استفهم بقوله: "ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين، والدين مقدّم عليها بإجماع" ٣٦ وقد استند هذا الإجماع إلى الحديث: (أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية) رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني ٣٧

٣٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط: ٢ دار الخير بيروت - لبنان ١٣١٢ هـ - ١٩٩١ م، ج: ١ ص: ٤٩٩.

٣٦ القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، ط: ٢ دار الكتاب العربي ١٤٠٥ هـ - ١٩٩٩ م، ج: ٥، ص: ٧٢.

٣٧ انظر إرواء الغليل للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ج: ٦، ص: ١٣١.

تقام بدعة الذبح في اليوم الثاني من الوفاة بعد صلاة الظهر غالباً، حيث يتقدمها اجتماعٌ وختمَةٌ قرآنيَّةٌ، وفي أثناء الذبح ترتكب أمورٌ تؤدي إلى الإِشراك بالله سبحانه وتعالى؛ فكان تحذيرُ الشيخ من هذه البدعة شديداً ومتكرراً في مناسباتٍ عديدةٍ.

وهذه البدعة من البدع التي لم تنلْ نَشِطَةً في الساحات؛ لذلك تجب مواصلةُ الجهود من تلاميذ الشيخ خاصَّةً، ومن جميع المصلِحين على وجه التعميم؛ لقطع كافة السبل التي تَسْتَمِدُّ منها وسائلُ البقاء على الساحات المتصلة بالدين.

الاجتماع في صباح اليوم الثالث، والسابع، والأربعين، وكذا في السنَّة من الوفاة بدعوى الاستغفار للميت،

وإهداء ثواب القرآن الذي تتمُّ قراءته في ذلك الاجتماع، كما يتم توزيع النقود والحلويات وغير ذلك.

الاحتفال بالمولد النبوي، وما يتَّصل به من اجتماعاتٍ لإنشاد المدائح، في بعض المساجد خاصَّة المساجد التابعة للحكام التقليديين من اليوم الأول في شهر ربيع الأول إلى الليلة الثاني عشر، بحيث يكون اليوم الثاني عشر إجازة رسميَّة من قِبَل الدولة للاحتفال بالمولد النبوي صلى الله عليه وسلم، وتستمر الاحتفالات الرسميَّة من قِبَل الحكام التقليديين إلى الأسبوع من اليوم الثاني عشر، إلا أنه من المعروف أن البدعة تتولَّد منها بدعٌ أخرى، فقد اخترعت اجتماعاتٌ في ليالٍ أخرى تعجب بالناس للاحتفال بالمولد يتم فيها إنشاد المدائح،

وإلقاء بعض المحاضرات، كما يتم الاختلاط بين الرجال والنساء يؤدّي في غالب الأحيان إلى ما لا تُحمد عقباه. وينبغي أن يُشار إلى أن مدح النبي صلى الله عليه وسلم في حدّ ذاته أمرٌ مشروعٌ، وقد نشأ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث مدحه الشعراء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، "وأنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه، ويردون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم".^{٣٨} ومن أشعار حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني

^{٣٨} شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط: ٢٠ (بدون تاريخ) دار المعارف ص: ٤٤.

وأجل منك لم تلد النساء

خُلقت مبراً من كل عيبٍ

كأنك قد خُلقت كما تشاء^{٣٩}

إلا أن المشكلة تكمن في نوعيّة المدح، حيث إن من المدائح النبويّة التي يتمُّ إنشادها في هذه المنطقة ما يشتمل على الإطراء الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبدُ الله ورسوله)^{٤٠} والإطراء: مجاوزة الحد في المدح، وذلك مثل قول البوصيري في البردة:

^{٣٩} المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث، القسم: الدواوين الشعرية- ديوان حسان بن ثابت، ص: ٢.
^{٤٠} البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه / صحيح البخاري، ط: دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، ج: ٤، ص: ١٥٧.

فإن من جودك الدنيا وضررتها

ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به

سواك عند حلول الحادث العمم^{٤١}

ومن هنا صار من الواجب أن تخضع بعضُ الأبيات من القصائد المدحِيَّة لقواعد التمحيص، وأن تمرَّ بغربال النقد، لاسيَّما قصيدة البوصيري ومن كان على شاكلته؛ وذلك كي نتأكد من سلامتها وعدم اشتغالها على الإطراء، أو مخالفات عقديَّة أخرى.

كما أن هناك بعضَ اعتقاداتٍ تحيط ببعض المجالس المدحِيَّة، كاعتقاد حضور النبي صلى الله عليه وسلم

^{٤١} بردة المديح، ص: ٣٤ / ٣٥

للمجالس عند إنشاد بعض الأبيات، ومن خلال هذا المنظور يتم تنظيم هذه المدائح في سلك الأمور البدعيّة، وتصنيفها ضمن محدثات الأمور، وإذا تحرّرت المدائح النبويّة من القيود التي سلفت ذكرها فإنها تعود إلى أصلها من كونها أمراً مشروعاً مثاباً عليه.

لكن يجب أن يُعلم أنه ليس هناك علاقة بين مدح النبي صلى الله عليه وسلم والاحتفال بالمولد، فالأول سنة أقرّها النبيُّ صلى الله عليه وسلم، بينما كان الثاني بدعة لم يعرفها السلفُ الصالحُ كما جاء ذلك عن رموزٍ من فقهاء المالكيّة وغيرهم.

ولعل نجم أبي عبد الله محمد بن الحاج رحمه الله أكثر النجوم لمعاناً في هذا الجانب؛ إذ إن الحديث عن بدعيّة الاحتفال بالمولد وعدم حصوله على رخصةٍ شرعيّةٍ قد

شغل حيّراً واسعاً من كتابه: المدخل عن طريق الحديث عن هذه القضية بشكلٍ متكرّرٍ، ومن ذلك قوله "ومن جملة ما أحدثوه من البدع مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات وإظهار الشعائر ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من مولد، وقد احتوى على بدعٍ ومحرماتٍ جملة" ^{٤٢} وقال في موضع آخر: "ثم انظر رحمنا الله وإياك إلى مخالفة السنة، ما أشنعها، ألا ترى أنهم لما ابتدعوا فعلَ المولد على ما تقدّم تشوّقتْ نفوسُ النساء لفعل ذلك، وقد تقدم ما في مولد الرجال من البدع والمخالفة للسلف الماضين رضي الله عنهم أجمعين، فكيف إذا فعله النساء، لاجرم أنهن لما فعلنه ظهرت في عوراتٍ جملة، ومفاسدٌ عديدةٌ، فمنها ما تقدم في مولد الرجال

^{٤٢} ابن الحاج، المدخل، دار التراث (د ت) ج: ٢، ص: ٢.

من أنه يكون بعض النساء ينظر إلى الرجال فيقع ما يقع من التشويش بين الرجل وأهله بسبب ذلك كما تقدم، وفي المولد الذي يفعله النساء ما هو أعظم وأدهى لأن بعض الرجال يتطلع عليهن من بعض الطاقات ومن السطوح، وربما عرف الرجال بسبب ذلك بعض النسوة الحاضرات فيقولون هذه زوجة فلان وهذه بنت فلان، وربما تعلقت نفوس بعض الرجال ببعض من يرون.^{٤٣} وقال أيضاً "وقد خرجنا عما كنا بصدده من فعل المولد بالقبور، ووقع الكلام على بعض مسائلها، ثم نرجع الآن إلى ما كنا بسبيله من ذكر شيء من مسائل المولد، فمن ذلك أن بعضهم يتورّع عن فعل المولد بالمعاني المتقدم ذكرها، ويُعوّض عن ذلك القراء والفقراء

^{٤٣} المصدر السابق، ص: ١٠.

الذين يذكرون مجتمعين برفع الأصوات والهنوك كما علم من عادة القراء في هذا الزمان، وكذلك الفقراء، وقد تقدم الدليل على منع ذلك في غير المولد فكيف به في المولد؟" ^{٤٤} وقال أيضاً "وبعضهم يتورّع عن هذا، ويعمل المولد بقراءة البخاري وغيره؛ عوضاً عن ذلك، وهذا وإن كانت قراءة الحديث في نفسها من أكبر القرب والعبادات وفيها البركة العظيمة والخير الكثير لكن إذا فعل ذلك بشرطه اللائق به على الوجه الشرعي كما ينبغي لا بنية المولد، ألا ترى أن الصلاة من أعظم القرب إلى الله تعالى ومع ذلك فلو فعلها إنسان في غير الوقت المشرع لها لكان مذموماً مخالفاً، فإذا كانت الصلاة بهذه المثابة فما بالك بغيرها" ^{٤٥}

^{٤٤} المصدر السابق، ص: ٢٥.

^{٤٥} المصدر السابق.

وعلى هذا النجو تكرر الحديث عن بدعة المولد في أماكن عديدة من المدخل.

كما أن لأبي حفص: تاج الدين الفاكهاني المالكي دوراً محموداً في بيان بدعة المولد، حيث كتب رسالة نفيسة في هذا المضمار سماها بـ "المورد في حكم المولد" وهي رسالة صغيرة الحجم لكنها عظيمة النفع، وقد كتبها أبو حفص إجابةً على سؤال جماعةٍ كما أفصح عن ذلك في مطلع الرسالة حيث يقول: "أما بعد: فقد تكرر سؤال جماعةٍ من المياركين عن الاجتماع الذي يعمله بعضُ الناس في شهر ربيع الأول، ويسمونه المولد: هل له أصل في الشرع؟ أو هو بدعة وحدث في الدين؟ وقصدوا الجواب عن ذلك مُبيناً، والإيضاح عنه معيناً. فقلت وبالله التوفيق: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب

ولا سنة، ولا يُنقل عمله عن أحدٍ من علماء الأمة،
الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين،
بل هو بدعة أحدثها البطّالون، وشهوة نفسٍ اغتنى بها
الأكّالون، بدليل أنّنا إذا أدركنا عليه الأحكام الخمسة
قلنا: إما أن يكون واجباً، أو مندوباً، أو مباحاً، أو
مكروهاً، أو محرماً. وهو ليس بواجب إجماعاً، ولا
مندوباً؛ لأن حقيقة المندوب: ما طلبه الشرع من غير
ذمٍّ على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع، ولا فعله
الصحابة، ولا التابعون ولا العلماء المتدينون - فيما
علمت - وهذا جوابي عنه بين يدي الله إن عنه سئلت.
ولا جائز أن يكون مباحاً؛ لأن الابتداع في الدين ليس
مباحاً بإجماع المسلمين " ٤٦

٤٦ الفاكهاني، المورد في حكم المولد، المكتبة الشاملة، الإصدار: الثالث، القسم: العقيدة، ص: ١.

وقد اشتملت هذه الرسالة القيّمة - مع صغرها - على براعة الاختتام التي هي ركيّةٌ مهمّةٌ من الركائز البلاغيّة في عالم الكتابة عامّة، والتأليفات الإبداعية على وجه الخصوص؛ إذ ختم أبو حفص حديثه بالقضية التي كتب الرسالة من أجلها، وذلك من خلال الإشارة إلى حقيقة مهمة تتعلق بالاحتفال المولدي، غفل عنها أناس، وتغافل عنها الآخرون، وهو "أن الشهر الذي وُلد فيه النبي صلى الله عليه وسلم - وهو ربيع الأول - هو بعينه الشهر الذي تُوفي فيه، فليس الفرح بأولى من الحزن فيه"^{٤٧} لذلك ينبغي لكل من يحتفل بالمولد أن ينظر في هذا الأمر بعين الاعتبار.

^{٤٧} الفاكهاني: المصدر السابق، ص: ٣.

والشيخ أبو عبد الله محمد أحمد عيش من كبار الفقهاء المتأخرين في المذهب المالكي، ومن علماء الأزهر أيضاً، وله إسهامات تأليفية بناءً، تُشكّل لبناتٍ قويّةٍ مما ارتفع به صرح المذهب المالكي في طوره الراهن، ولعلّ كتاب فتح العلي المالكي في الفتوى على مذهب الإمام مالك، يمكن أن يُعتبر من أبرز مساهماته الكتابية، وقد تناول هذا الكتاب قضية المولد عن طريق إجابة سائل، وذلك حيث يقوله: "مسائل النذر: ما قولكم في رجلٍ عنده بقرةٌ فمرضت، والحال أنّها حاملٌ فقال: إن شفى الله بقرتي فعليّ ذبح ما في بطنها في مولد للرسول صلى الله عليه وسلم فشفها الله تعالى وولدت أنثى ثم تراخى عن ذبحها حتى كبرت وحملت

فهل يلزمه ذبحها بعينها أو يلزمه ذبح بدلها أو لا يلزمه شيء؟ أفيدوا الجواب.

فأجبت بما نصه: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله لا يلزمه شيء؛ لأن عمل مولد للرسول صلى الله عليه وسلم ليس مندوبا خصوصا إن اشتمل على مكروه كقراءة بتلحين أو غناء، ولا يسلم في هذه الأزمان من ذلك، وما هو أشد منه، والنذر إنما يلزم به ما ندب والله أعلم " ٤٨

وعلى هذا الشكل سال كثير من حبر العلماء المالكيين من أجل الحديث عن بدعية المولد وإخراجه من دائرة الأمور المشروعة، وإحاقه بالأعمال المبتدعة التي ليس عليها أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤٨ محمد أحمد عيش، فتح العلي المالكي في الفتوى على مذهب المالكي، دار المعرفة (د ت) ج: ١، ص: ٢٠٥.

وللشيخ العلامة أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي الفاسي مؤلفٌ ضحْمٌ، جمع فيه فتاوى علماء المالكية في الجناح الغربي من العالم الإسلامي سماه المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، يقع هذا الكتاب في اثني عشر جزء، وفي الجزء السابع خصَّص المؤلف صفحاتٍ للحديث عن حكم الاحتفال بالمولد النبوي، ومن خلالها نقل كلاماً لأبي عبد الله الحفار عن المولد، والذي يقول فيه: "وليلة المولد لم يكن السلفُ الصالحُ - وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم - يجتمعون فيها للعبادة، ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يُعظَّم إلا بالوجه الذي شرع فيه تعظيمه، وتعظيمه من

أعظم القربات، لكن يُتقَرَّب إلى الله جلَّ جلاله بما
شَرع، والدليل على أن السلف لم يكونوا يزيدون فيها
زيادة على سائر الليالي أنهم اختلفوا فيها، فقيل: إنه
صلى الله عليه وسلم وُلِد في رمضان، وقيل في
الربيع..... لا تُحدث عبادةً في زمانٍ ولا مكانٍ إلا إن
شُرعت، وما لم يشرع لا يُفعل؛ إذ لا يأتي آخر هذه
الأمة بأهـجى مما أتى به أولها، ولو فُتِح هذا الباب لـجاء
قومٌ فقالوا: يوم هجرته إلى المدينة يوم أعزَّ الله فيه
الإسلام؛ فيجتمع فيه ويتعبَّد، ويقول آخرون: اللية التي
أسري به، فيها حصل له من الخير ما لا يُقدر قدره؛
فتحدث فيها عبادة، فلا يقف ذلك عند حده، والخير
كله في اتباع السلف الذين اختارهم الله له، فما فعلوه
فعلناه، وما تركوه تركناه، فإذا تقرر هذا ظهر أن

الاجتماع في تلك الليلة ليس بمطلوبٍ شرعاً، بل يُؤمر
بتركه " ٤٩

ثم نقل الونشريسي عن أبي إسحق الشاطبي قوله عن
المولد: "فمعلوم أن إقامة المولد على الوصف المعهود بين
الناس بدعة محدثة يقتسمونها بينهم" ٥٠

وقد أعطت هذه النقول الصورة الواضحة عن الموقف
الرسمي لمذهب الإمام مالك فيما يتعلق بالاحتفال
بالمولد؛ لذلك لا ينبغي لمن ينتسب إليه، أو إلى غيره
من المذاهب أن يُهدر هذا الجهدَ الجبارَ الذي بذله
فقهاءُ المذهب في هذا المضمار، أو أن يتهم من لا
يحتفل بعدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن شرارة
هذه التهمة لا تقتصر على المعاصرين ممن يرون بدعيّة

٤٩ الونشريسي، المعيار المغرب، ط: ١، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - المملكة المغربية
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ج: ٧، ص: ١٠٠.
٥٠ المصدر السابق، ص: ١٠٢.

الاحتفال بالمولد، بل تطير أيضاً إلى الرموز المالكيّة الذين سبق ذكرهم، وسردُ آراءهم الراضة للاحتفال بالمولد؛ لأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً؛ لذلك يجب إمساكُ عنان اللسان والقلم عن هذه المجازفة، وإصدار الأحكام الفضفاضة التي لا تستند إلى أي دليلٍ صحيح.

كما أن هولاء المذكورين من أبرز العلماء الذين اعتمد الشيخُ محمدُ أبّةُ أج على كتبهم وفتواهم في تبديع الاحتفال بالمولد النبوي صلى الله عليه وسلم.

ومن حكمة الشيخ الدعويّة أنه كان له برنامجٌ إذاعيٌّ في يوم الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، يُذاع غالباً في الفترة الصباحيّة، ويُعادُ في فتراتٍ أخرى من خلال أيام الاحتفال، يقوم الشيخ رحمه الله بسرد الوقائع

الموجعة التي أحاطت بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بنبرة حزينية، بدء من مرضه، واستخلافه أبا بكر رضي الله عنه للصلاة، وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة متكأ على بعض أصحابه، ثم انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وما صاحب ذلك من الحزن الذي ألمَّ بالصحابة رضي الله عنهم، وكل من يسمتع إلى هذا البرنامج بأذنٍ واعية يتوصّل إلى نتائج عديدة، وأهمها: أن الحزن في هذا اليوم - لو كان مشروعاً - هو الأحق من الاحتفال فيه؛ لأنه يُذكّر الأمة بيومٍ فقدت فيه رسولها: سيدٍ ولدِ آدمٍ صلى الله عليه وسلم.

ولعلّ توصّل المستمع إلى هذه النتيجة هو السبب الذي حمل الشيخ رحمه الله على قبول تقديم برنامجٍ إذاعيٍّ في

مناسبة بدعيّة، وهذا أيضاً طرفٌ من الحكمة الدعويّة التي يتحلّى بها الشيخُ رحمه الله، فإنه قد يُطالب بالقيام بأمرٍ مخالفٍ لمنهجه الدعوي، ومناقضةٍ لمشروعه الإصلاحية إلا أنه يخرج منها سالماً غانماً، فقد رزقه الله تعالى المقدرة الدعويّة، والملكة اللسانيّة، والخزانة اللبقيّة التي يستطيع من خلالها تطويع تلك الأمور لخدمة الدعوة، وإخراجها في حُلّةٍ سنّيةٍ برّاقةٍ، فهم في وادٍ والشيخ في وادٍ آخر، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على ما يتمتّع به الشيخُ رحمه الله من الوسائل الدعويّة، والطرق الإيصاليّة والتوفيقات الإلهيّة التي تساعد على التخلص من المآزق والمزالق المختلفة، لا سيما في المراحل الأولى من ظهور دعوته، إلا أنني لا أدري الآن، هل ما زال البرنامج على حاله أم تم استبداله بآخر؟ وليتهم تركوا

البرنامج على حاله؛ حتى لا تخلو الساحة بمن ابتدع الفرخ في يوم موت نبي الرحمة، ورسول الرأفة، عزيز عليه ماعتتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومما حذر منها الشيخ من البدع: الدعاء الجماعي بشكلٍ دائمٍ أدبار الصلوات المفروضة، بحيث يقوم الإمام بأمر المأمومين بقراءة سورٍ من القصار، وبعض الأدعية، ثم يقومون بعد ذلك بدعاء جماعيٍّ بقيادة الإمام، وقد حلَّ هذا الأمر محلَّ الأذكار النبويَّة الماثورة دُبر الصلوات المفروضة؛ بحيث لا يتمكَّن أغلب المأمومين من تأدية هذه الشعيرة العظيمة التي وردت آثارُ صحاحٍ في بيان فضله بشكلٍ كاملٍ.

وقد واجه الشيخُ مضايقاتٍ عديدةٍ من أجل موقفه الناقد لهذه البدعة، ولعله أوَّل من أبدى إنكاراً صريحاً على هذه البدعة في هذه المنطقة؛ لذلك اتُّهم زوراً بأنه يمنع الأذكارَ بعد الصلوات المفروضة ويرى أنها بدعة، مع أن الشيخ رحمه الله لم يمنع الأذكارَ المسنونة بعد الصلوات المفروضة، وإنما ينصبُّ كلامه على ما أحدثه بعضُ الأئمة من دعاءٍ جماعيٍّ بشكلٍ دائمٍ، ولم تزل هذه التهمةُ المختلقة تلاحق تلاميذ الشيخ إلى الوقت الرهن. والغريب أنه قد جاء النهي عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله عن هذا النوع من الدعاء صريحاً كما نقل ذلك العلامة صالح الأزهري رحمه الله في كتابه **الثمر الداني** الذي شرح فيه رسالة أبي زيد القيرواني، أحد أهم الكتب المالكيَّة وأبرزها في هذه المنطقة، وذلك عند ما

يشرح قول الإمام أبي زيد: وإذا سلم الإمام فلا يثبت
ولينصرف، قال الشارح صالح الأزهري: "فائدة: كره
مالك رضي الله عنه وجماعة من العلماء لأئمة المساجد
والجماعات الدعاء عقب الصلوات المكتوبة جهراً
للحاضرين فيجتمع لهذا الإمام التقديم وشرف كونه
نصب نفسه واسطة بين الله تعالى وبين عباده في تحصيل
مصالحهم على يديه في الدعاء؛ فيوشك أن تعظم نفسه
ويفسد قلبه ويعصي ربه في هذه الحالة أكثر مما يطيعه،
وروي أن بعض الأئمة استأذن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه أن يدعو لقومه بدعوات بعد الصلاة فقال: لا؛
لأنني أخاف عليك أن تشمخ نفسك حتى تصل الثريا

أي ترتفع نفسك، وهذا كناية عن الكبر ويجري مجرى هذا كل من نصب نفسه للدعاء لغيره" ^{٥١} والأغرب من ذلك الغريب أن يخفى هذا الكلام الطويل على ذلك الجمع الغفير من العلماء؛ فيحاربوا المذهب المالكي المتبع من خلال محاربتهم الشيخ الذي تبني كلاماً مأثوراً عن الإمام مالك رحمه الله. وقد قام الشيخ رحمه الله بالتحذير من تلك البدع المذكورة وغيرها من الأمور المحدثه التي طرأت على المسلمين في هذه المنطقة مما ليس من التعاليم الربانيّة، ولا الهداية النبويّة نسأل الله أن يوفقنا لمتابعة السنة، واجتناب البدع، إنه سميع قريب.

^{٥١} صالح الأزهرى، الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية - بيروت، ص: ١٦١.

مـحاربة السـحر والشعوذة.

وأما السحر والكهانة والشعوذة فقد بذل الشيخ غاية وسعه في التحذير عن هذه الأشياء، وبيان خطورتها، وإثم مرتكبيها؛ إذ إنها انتشرت في هذه المنطقة انتشاراً رهيباً حتى كادت أن تصير من المعروف الذي لا يُنكر، حيث يعتقد جمٌّ غفيرٌ من ساكني هذه المنطقة ممن لا يميّزون بين الورم والشحم بأن الذين يمارسون هذه الأعمال هم العلماء الربانيون الذين يُستجاب دعاؤهم؛ لأنهم ظهروا في صور العلماء لدى أنظار العامة؛ لذلك ترى بيوتهم لا تخلو من الناس، ومنازلهم لا تغيب عنها النساء، مع أن السحرَ بابٌ واسعٌ من الأبواب التي يُفضي إلى الشرك، وطريقٌ مهيعٌ يُوصل المرء إلى ساحة الكفر، بل هي كفرٌ بعينه لقول الله تعالى: (وَمَا كَفَرَ

سُلِّمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ (البقرة: ١٠٢. وقوله تعالى: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ). البقرة: ١٠٢ وقد
عدَّ النبيُّ صلى الله عليه السحر من الموبقات كما جاء
في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله
عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما
هن ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي
حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم
والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات
المؤمنات) .

كما أن أبا الوليد بن رشد رحمه الله قد نقل عن الإمام مالك رحمه الله "في حكم الساحر أنه يُقتل ككفرًا" ٥٢
إلا أن الجهل الذي يُسيطر على هذه المنطقة استخدمه هولاء السحرة أداةً لاستخفاف عقول الناس، وسبيلًا إلى قلب الحقائق، ووسيلةً لإخراج السم في صفة الترياق، فصار من يُنكر عليهم كمن يُنكر على أمرٍ مشروع. وكان من المنتظر أن تنشب ثورةٌ عظيمةٌ ضدَّ هولاء الدجّالين؛ لِمَا أفسدوا من عقائد المسلمين؛ لأن ذلك هو المفروض من هذه المنطقة المشهورة بحفظ القرآن وتحفيظه، وقد ثبت في القرآن الكريم وفي سورة البقرة على وجه التحديد أن السحرَ كفرٌ، وأن الشياطين الذين تعاطوا السحر كفروا، وثبت عن الإمام مالك

٥٢ ابن رشد، المصدر السابق، ج: ٢، ص: ٢٤٢.

رحمه الله أن الساحر يقتل كفراً، ولكنه للأسف الشديد لم يكن اهتماماً أغلب القراء ينصبُّ على فهم معاني القرآن والعمل بما تقتضيه آيات الفرقان، بل إن قصارى جهدهم، وغاية وكدهم هو التمكن من حفظ القرآن وقراءته غيباً؛ فكان ذلك من الأسباب التي حالت دون معرفة الأحكام الشرعيَّة والوقوف على المعاني القرآنيَّة، وتدبر آياته والعثور على الدرر الكامنة في أعماق الذكر الحكيم.

ومن يكثر منهم تصديقُ السحرة والاختلافُ إلى منازل المشعوذين والعرَّافين: النساء، والحكام التقليديُّون، والذين يترشَّحون للمناصب السياسيَّة، والتجار.

أما النساء فيرتكبن هذا الذنب الشنيع غالباً للسيطرة على أزواجهن، أو لمنعهم من الزواج بالأخرى، أو

صرفهم عن الاهتمام بالضرة أو بأولادها، وغير ذلك من الأسباب التي تحملهن على ممارسة الأعمال السحرية. وأما الحكام التقليديون فإنهم يستخدمون السحر لإرساء دعائم ملكهم والنيل من أعدائهم على حدّ زعمهم، مع أنه ليس لهم تأثير كبير في سياسة الدولة، كما أنهم لا يملكون شيئاً ملموساً سوى الألقاب. والذين يترشّحون للمناصب السياسية يمارسون السحر للفوز في الانتخابات أو النجاح في تزويرها من أجل الوصول إلى سدّة الحكم، أو بلوغ المناصب المهمة، وتولي المقاليد الوزارية وغيرها. وأما التجار فهم يمارسون هذا الفعل من أجل جلب الناس إليهم أو قمع أقرانهم في التجارة، وكبت منافسيهم.

فهؤلاء المذكورون هم أكثر فيئات مجتمع برنو تعاطياً
للسحر.

وقد قام الشيخ رحمه الله بجهودٍ جبارةٍ في محاربة السحر،
وتزويق الغلاثل التي يتوشَّح بها السحرة، وكشف القناع
الزائف عن وجوههم، وإزالة ما استقرَّ في أفكار بعض
الناس من أن للسحرة مقدرةً على إثراء الناس، أو أن
لهم كراماتِ الأولياء، كما هو الحال في كثيرٍ ممن يدَّعي
الولاية، حيث إن أغلب ما يدَّعون من الكرامات التي
تخرق العادةَ وتخالف المعقولةَ سحرٌ وشعوذةٌ، ولا تمت
للولاية بأي صلة، نعوذ بالله من شر ما خلق.

تلك هي النقاط الثلاثة التي أردتُ أن أتناولها بشيءٍ
يسيرٍ من التفصيل، أرجو أن يكون ذلك التفصيلُ قد
كشف الأكنةَ عن بعض الجهود الدعويَّة التي بذلها

الشيخُ محمدُ أبَّهْ أج في مشروعه الإصلاحِي، ونشاطاته
الدعويَّة، رحمهُ اللهُ رحمةً واسعةً وأسكنهُ فسيحَ جنانه.

أسلوب الشيخ في إيصال رسائله الدعويّة

والمقصودُ من هذا العنوان هو الأسلوب الذي استخدمه الشيخُ في نقل الموادِ العربيّةِ إلى اللغات المحليّة التي يتمُّ من خلالها إيصال رسائله الدعويّة عند تناوله للنقاط السالفة وغيرها، وقد قام الشيخ بترجمة معاني القرآن الكريم مراراً وتكراراً إلى اللغتين: الكانوريّة والهوسويّة اللتين هما أكثر اللغات انتشاراً في المنطقة، كما قام بتدريس بعض الكتب المتداولة: "كتاب الموطأ، وصحيح مسلم، ورياض الصالحين، وبلوغ المرام، وأربعين النوويّة، وبعض الكتب المالكية المشهورة في المنطقة مثل كتاب الأخصري، والعشماوي، والمقدّمة الغزيّة، والرسالة، ومنظومة القرطبي، كما قام أيضاً بتدريس بعض الكتب التي ألفها العلماء المعاصرون،

ككتاب الأنوار الرحمانية هداية الفرقة التيجانية،
ومنهاج المسلم، وغير ذلك من الكتب التي لا يتسع
المقام لذكرها، ومن أواخر الكتب التي قام الشيخُ
بتدريسها كتاب: تيسير العلي القدير لاختصار تفسير
ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعي، إلا أن المنية وافته قبل
إكماله^{٥٣}

وقد استعمل الشيخُ الأسلوبَ المتميزَ عند قيامه
بعمليّة التدريس في أثناء الترجمة إلى اللغتين: الكانوريّة
والهوساوية.

أما الترجمة إلى اللغة الكانوريّة فقد تجاوز رحمه الله
الإطارَ التقليديّ المحصورَ في ما يسمى بـ "ترجمو:
الترجمة الحرفيّة" السائد في المنطقة، وهو أسلوبُ

^{٥٣} مقابلة مع الشيخ إبراهيم مصطفى.

تُستخدم فيه ألفاظٌ صعبٌ، وبعض المفردات غير المتداولة التي لا يفهما فهماً صحيحاً إلا القلة القليلة ممن يتحدّث بالكانوريّة، ومعظمهم من طلاب العلم الذين زاولوا هذه الطريقة وتمرسوا بها، وقد أدّى هذا الأمر دوراً كبيراً في صرف كثيرٍ من المسلمين عن حضور المجالس العلميّة التي يُستعمل فيها هذا الأسلوب؛ لعدم فهمهم إياه، ولغرابة بعض الألفاظ التي تُستعمل في هذا الأسلوب، والغموض الذي يكتنف كلماتها أثرت بعض الشكوك حول كانوريّة بعض المفردات المستخدمة، ومنشأ هذه الشبهة من كون هذه المفردات لا تتداولها ألسنة كبار السن ولا تُسمع من الأدباء الكانوريين، علاوة على ذلك أن الذين يستخدمون تلك المفردات الصعبة في عمليّة الترجمة لا يستعملونها في خطابهم

العادي وكلامهم اليومي، وإنما يأخذون بالمفردات السهلة والألفاظ المتداولة، حتى إذا جلسوا على كرسي الترجمة فبدلاً من أن يأتوا بالألفاظ السهلة - ليوصلوا الرسائل الإسلامية بطريقة جذابة - عمدوا إلى مفردات معقدة تصك الآذان، وتحتاج إلى ترجمة أخرى، بل إن المفردات التي تستخدم في هذا النوع سرعان ما تُنسى؛ لكونها ألفاظاً غير متداولة، الأمر الذي يتطلب ممن يتلقى الترجمة عبر هذه القناة أن يحفظ الألفاظ الكانورية بجانب الألفاظ العربية إن كان الكتاب المترجم مما يحفظ كالمتون الفقهيّة نحو منظومة القرطبي وابن عاشر وابن رشد في المالكيّة، أو المتون اللغويّة كالألفيّة وملحة الإعراب وغيرها من المتون التي يحفظها طلاب العلم عادة في هذه المنطقة، ولذلك يستغرق الطالب مدّة

زمنيّة غير لازمة في دراسة الكتب؛ نتيجة لصعوبة الطريقة التي سلكها المترجم في عمليّة الترجمة لدرجة أن ترجمة بيت شعريّ واحدٍ تستغرق أحياناً الدرسين أو أكثر.

وأما الأسلوب الذي استخدمه الشيخ فلم يكن حكراً على فئةٍ معيّنة من المجتمع، ولا محصوراً ضمن إطارٍ محدودٍ، بل يفهمه العامُّ والخاصُّ، وقد ألبس أسلوبه ثوباً شفافاً يتجلّى باطنه من ظاهره، حيث اختار الألفاظ السهلة والمفردات المتداولة التي يفهمها الجميع؛ لتكون وسيلةً تتمُّ عبرها عمليّة الشرح؛ كي يتسنى له إيصالُ رسائله الإصلاحيّة بأسلوبٍ جذابٍ يستميل المستمع ويصل إلى الآذان بلا استئذان، ولذلك طَفَحَت منطقةُ برنو بأشرطة الشيخ حتى بلغت إلى مناطقٍ أخرى، في

داخل نيجيريا وخارجها، وهذا الطريق وإن لم يكن الشيخ هو الذي اخترعه كأسلوبٍ من أساليب الترجمة في هذه المنطقة إلا أنه يمكن القول على أقلِّ التقديرات بأن الشيخ هو الذي نفّض عنه الغبارَ بحيث استطاع أن يكون في طليعة الأساليب التي يستخدمها المترجمون الكانوريون في طول هذه المنطقة وعرضها.

وبالله التوفيق

العوامل التي ساعدت على نجاح دعوة الشيخ

من المعرف أو المتَّفَق عليه أن مهمّة الشيخ الدعويّة ومشروعه الإصلاحِي قد تكلَّلَا بنجاحٍ فائقٍ، ولا شك أن ذلك بتوفيق الله سبحانه وتعالى، وهناك عواملٌ عديدةٌ يسرّها الله تعالى للشيخ يمكن أن تُعتبر أسباباً أساسيةً في نجاح دعوته، ومن أهمّ تلك العوامل ما يأتي:

إخلاص الشيخ لدعوته، وعدم سعيه وراء مكاسب دنيويّةٍ، ومناصب حكوميّةٍ، أو شهرة زائلة من خلال دعوته، وهذه الصفة من الخصائص الدعويّة المهمة التي يتحلّى بها الشيخ، والتي هي من أهمّ الأمور التي ساعدت على نجاح دعوته وانتشارها، ومع أن الشيخ كان يقوم بتفسير القرآن الكريم (ترجمته معانيها إلى لغة الهوسا) في قصر الحاكم أعلى سلطةٍ في الولاية، وكان

الحكام يجلسون أمامه يستمعون إلى تفسيره، إلا أنه لم يستغل هذه الفرصة لغرض دنيوي، وقد عاصر الشيخ حكماً من العسكريين والمدنيين، ولو كان ممن يسعى وراء مكاسب دنيوية لقال هذه فرصة ذهبية لا تسنح إلا لمن يهتبلها، ولكنه لم يفعل ذلك وإنما أخلص لدعوته، حيث قام بنشر حقيقة التوحيد وإظهار معالم الإسلام اللامعة المشرقة، وكان الشيخ يحدّر طلابه دائماً من اتخذ الدعوة وسيلة للوصول إلى أغراض دنيوية أو مناصب حكومية، وقد حضرت اجتماعاً استثنائياً عُقد في بيت الشيخ ضمّ عدداً كبيراً من تلاميذه، وذلك بعد حادثٍ مريرٍ وقع في مدينة ميدغري، تمّ خلاله تدوّل القضايا الراهنة التي تمسّ الجوانب الدعوية، أكدّ الشيخ خلال ذلك الاجتماع على ضرورة الإخلاص في الدعوة

وابتغاء مرضاة الله وحده، وعدم جعلها وسيلة للحصول على حطام الدنيا، حتى إنه قال: "إن الأغنياء من الأنبياء قليل" ولعله لاحظ من بعد طلائه هذا الخلق السافل.

إتقان اللغتين: الكانورية والهوسوية، وكان يتحدث بهاتين اللغتين بطلاقة، ويمتلك من مفرداتهما رصيذاً هائلاً، وعلى رغم من أن اللغة الكانورية هي لغة معظم سكان ولاية برنو، إلا أن هناك شريحة واسعة من سكان الولاية لا يفهمون هذه اللغة، وذلك مثل: قبيلة بابور/ بورا، ومرغي، وغودا وغيرهم، ومعظم هذه القبيلة يفهم لغة هوسا، إضافة إلى الوافدين إلى برنو من ولايات هوسوية، ولما كان الشيخ يقوم بشرح المعاني القرآنية إلى اللغة الهوسوية لقيت دروسه أصداء واسعة، في ولاية

برنو، وولايات أخرى من المناطق التي تتحدث باللغة الهوسوية، ولا أدلّ على ذلك من قول الشيخ جعفر محمود آدم رحمه الله تعالى: إن من بين العوامل التي شجّعته على طلب العلم شريطاً للشيخ محمد أبه أج استمع إليه.

صبره وتحمله المشاق، قضى الشيخ واحداً وخمسين عاماً يعمل في الحقول الدعوية، والميادين الإصلاحية، وبمجرد سماع تلك السنوات التي قضاها الشيخ في العمل الدعوي يتبين مدى صبره وتحمله المشاق في سبيل الدعوة، وقد واجه الشيخ أنواعاً كثيرةً من التحديات في سبيل الوصول إلى أهدافه الإصلاحية، حيث جُنِدَتْ طاقات هائلة لعرقلة سير دعوته ومحاولة إجهاضها؛ لإعادة منطقة برنو إلى مربّعها الأول الذي تعيشه قبل

ظهر دعوة الشيخ المباركة، كما أن أعداء دعوته قاموا بالصاق بعض التهم المنفّرة له ومحاولة اغتياله، وهذه شنشنة أعداء الحق في كل زمانٍ ومكانٍ، منذ ظهور دعوة الحق إلى الوقت الحاضر، يحاولون أن يطمسوا معالم الحق وإطفاء أنواره، إلا أن الشيخ بفضل الله سبحانه وتعالى وبتوقيقه قد تغلّب على هذه المعوّقات، حيث لم تتوقف دعوته، بل ازدادت شيوعاً وانتشاراً حتى بلغت أوج عظمتها، وانثال الناس عليها ينهلون من معينها الصافي وينبوعها العذب؛ وذلك لما وهبه الله تعالى من نعمة الصبر وتحمل المشاقّ في سبيل الدعوة.

الحكمة الدعويّة، في الدعوة إلى الله تعالى، والحثّ على اتباع المنهج النبوي، والاقتراء بالسلف الصالح في الأمور الدينية كلها.

الحنكة الأسلوبية في تحفيز الجماهير على التعلم الديني، والتطوير الثقافي، وصقل المهارات وإثراء الخبرات، وغير ذلك مما يُكَوِّن جيلاً قادراً على الكدح الدعوي، والعطاء الإصلاحي على درجةٍ عاليةٍ، في صورةٍ مقبولةٍ. ومن العوامل التي ساعدت على نجاح دعوة الشيخ أيضاً: استخدامه للألفاظ السهلة والمفردات المتداولة عند شرح المواد العربية إلى اللغة المحلية، واستعماله لوسائل الإعلام، وتمراره في عملية الدعوة والتدريس، وتواضعه، وحسن علاقته مع تلاميذه عامّة ومع الناس والشخصيات المؤثرة على وجه الخصوص، فبهذه العوامل وغيرها مما لم يُذكر نجحت بتوفيق الله تعالى دعوة الشيخ رحمه الله، وبلغت مرامها الإصلاحي.

تلاميذ الشيخ

خلف الشيخ رحمه الله تعالى آثاراً إصلاحية بارزة، وبصماتٍ تأثيرية ظاهرة، يتمثل معظمها في تلاميذه الذين قاموا بأدوارٍ فعّالةٍ في إثراء العملية الدعوية، ودفع عجلتها إلى الأمام؛ لذلك لم تتوقف المسيرة الإصلاحية التي قادها الشيخ طوال حياته الدعوية بعد رحيله، بل واصلت مشوارها الدعوي، ونشاطها الإصلاحي، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بالجهود المتواصلة التي تبذلها الجبهة الدعوية التي أنجبتها مسيرة الشيخ الإصلاحية، وتربّت على يديه، ونهلت من معين دروسه الصافية، وتشجيعاته النفيسة، وأخلاقه الحميدة؛ فاستلهمت روح أسلوبه، في بناء أعمالهم الدعوية على الغرار الذي نسجه عن طريق التناص، وسبيل الاقتداء.

وللشيخ تلاميذٌ كثارٌ تتلمذوا على يديه مباشرة، ولكنه يتعذر حصرهم في هذه العجالة؛ للمدة الفسيحة التي قضاها الشيخ في عمليّة الدعوة والإرشاد والتعليم، ويمكن ذكرُ أشهرهم من خلال الأسماء الآتية:

الشيخ إبراهيم مصطفى

الشيخ محمد علي عبشية

الشيخ محمد أبوبكر كشلا

الشيخ محمد مصطفى

الشيخ أبوبكر كياري

الشيخ الحاج غريمة

الشيخ يونس عمر

فهؤلاء هم أبرز مَنْ تتلمذوا على الشيخ تتلمذاً مباشراً، وتأثروا به تأثراً قويا.

ولكل واحدٍ من هؤلاء نشاطات عديدة، ارتفعت بها صروحٌ دعويَّةٌ وبروجٌ إصلاحيةٌ تثقيفيةٌ، يُستفاد منها داخل الولاية وخارجها، وذلك من خلال الدروس العلمية، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية التي يقدمونها، وأعمالٌ دعويَّةٌ أخرى.

وقد اختاروا الشيخ إبراهيم مصطفى مالك كبير تلاميذ الشيخ ونائبه في مسجده قائداً لهم؛ وذلك كي تنتظم أمورهم، يجتمع شملهم.

تُعبّر هذه المجموعة هي أكثر الكتل نشاطاً في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وتعليم الناس أمور دينهم على السبيل المحمدية التي سار عليها السلف الصالح رضي الله عنهم، كما أنها هي السدُّ المنيع الذي يقف أمام كل ما تتعارض مع التعليم الإسلامي، والهدي النبوي من

العقائد الباطلة، والأفكار المنحرفة الوافدة، وهذا أمرٌ مشاهدٌ لا يحتاج إلى البرهنة الاستدلالية لإثباته، أو النماذج التمثيلية في توضيحه، وأقرب مثالٍ وأحدثه وقوفهم في وجه الفكرة الهدامة "بوكو حرام" منذ مرحلتها الأولى في بواكير نشأتها، حيث لم يألوا جهداً في التحذير من هذا التيار الفاسد وبيان خطورتها، كما نبّهوا الحكومة مراراً وتكراراً على اتخاذ موقفٍ صارمٍ تجاه هذه الفكرة وحذروها من مغبّة التساهل في التعامل معها، والإهمال في مواجهتها.

وقد خرّجت هذه الكتلة تلاميذ عديده من خلال نشاطهم التدريسية المتواصلة، وهم كثيرٌ أيضاً؛ إذ إن لكلٍ منهم مجموعة كبيرة من التلاميذ الذين تتلمذوا عليهم.

إلا أنه قد رُصدت انحرافات منهجية، وخروقاتٌ مسلكيةٌ من بعض أفراد الكتلة بين فينة لأخرى، وذلك مثل إطناب الحديث في الساسة، والخوض الغائص في الحديث عن القضايا السياسيّة، والثناء المسهب على شخصياتٍ غيرٍ مستحقّةٍ، واستعمال أساليبٍ دعويّةٍ يصعب فهمه، وغير ذلك من أمورٍ تقتضيها الطبيعةُ البشريّةُ التي تهيم على سلوك الإنسان أحياناً. أسأل الله تعالى أن يُسدّد خطاهم، ويوفّقهم لما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، ويجعل الدعوة إلى الله تعالى أكبرَ همّهم، ويحفظهم من كل مكروه وسوء؛ إنه سميع قريب.

الخاتمة

كشفت الصفحات الماضية عن الجانب الدعوي من حياة الشيخ محمد أبي أج رحمه الله من خلال الحديث عن بعض الجهود الدعوية التي بذلها الشيخ، عبر الإشارة العابرة إلى أبرز النقاط التي تضمنه مشروع الإصلاح، مع تناول ثلاثة نقاط منها بشرح موجز، علّه يضع القارئ أمام الحقائق الواضحة للمجهودات الإصلاحية، والخدمات المتطورة التي قدمها الشيخ للمضمار الدعوي، ومن خلال هذه الجولة الدراسية السريعة على حياة الشيخ الدعوية تمّ التوصل إلى نتائج عديدة، ولعل من أهمها ما يأتي:

- اهتمام الشيخ بمعالجة أمور معينة من خلال حياته الدعوية، حيث هيمنت تلك الأمور على حيزٍ شاسعٍ

من مساحات همومه الدعويّة، ونشاطاته الإصلاحية، وقد ساعده هذا الأمر على تحقيق الأهداف التي يرمي إليها مشروعه الإصلاحي المتمثّل في أبرز الأمور التي تمت الإشارة إليها.

- اتباعه للمنهج القرآني في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك أنه أولى اهتماماً بالغاً لقضية التوحيد ومحاربة ضده.

- اشتغال بعد العادات التي تمارس في هذه المنطقة على مخالفات عقديّة بسبب الجهل.

- نظرة الشيخ الثاقبة ومعرفته الواسعة للعادات والتقاليد التي تُمارس في هذه المنطقة، وقدرته على التمييز الصحيح بين العادات الحسنة والسيئة.

- تفتنه للمخالفات العقديّة الدقيقة في بعض العادات التي تُمارس في هذه المنطقة.

- تأثيره على شريحة واسعة من المجتمع البرناوي؛ لاستعماله اللغة الفصيحة من جهة، وقيامه بعصْرنة الدعوة من جهة أخرى، وذلك من خلال استخدامه الوسائل الإيصالية التي أتاحها المعطيات العصرية لخدمة الدعوة، في حين يرى بعض من ينتمي إلى العلم والدعوة - عند استهلال دعوة الشيخ - تحريم استماع إلى الإذاعة أو المسجّل أو مشاهدة التلفاز وغيرها من الوسائل التي أفرزها التقدم العصري، فيما يستخدم الشيخ هذه الوسائل بكثافة؛ للغرض الدعوي والأهداف الإصلاحية، وقد ساعد هذا الأمر على وصول دعوته

إلى أماكن نائية من ولاية برنو وخارجها منذ اللحظات الأولى من ظهورها.

- ظهور تياراتٍ مناهضةٍ لدعوة الشيخ رحمه الله، وإلحاق بعض التهم المنقّرة له، وذلك لما رأوا من إقبال الجمهور إلى استماعه، والتأثر بآرائه، والقيام بتطبيقها في حياتهم.

- استخدام الحكمة في عمليّة الدعوة من أهم الأسباب التي تساعد الداعية على الوصول إلى أهدافه.

- لا يعلق الشيخ على القضايا السياسيّة إلا نادراً، وإذا دعت الحاجةُ اقتصر الكلام على القدر الذي تملّيه الحاجة.

- اندثار عاداتٍ كثيرةٍ تتضمن المخالفات العقديّة، واختفاء بدعٍ عديدةٍ عن الساحات الدينيّة، والميادين

العُرْفِيَّة بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بما بذله الشيخُ رحمه الله من الجهود المتواصلة، والتوعية المستمرة.

- اعتبار دعوة الشيخ وسيلة من وسائل التعرُّف على ثقافة برنو عامَّة، وعلى العادات والتقاليد الكانورية على وجه التحديد، كما أنه يمكن أن تُستخرج منها موضوعاتٌ تصلح للبحث العلمي، مثل:

- عاداتٌ وتقاليدُ قبيلة كانوري من خلال دعوة الشيخ محمد أبي أج دراسة تحليلية.

- الأدلة الشرعية التي اعتمد عليها الشيخُ محمد أبي أج في نقد بعض عاداتٍ وتقاليدٍ لبعض قبائل برنو.

- مخالفات عقديَّة في بعض العادات الكانورية. أو غير ذلك من الموضوعات التي تصلح أن تكون عناوين للبحوث العلميَّة

مثاليّة أسلوب الشيخ الدعوي، وكونه النموذج الأنسب والأصلح للمجتمع البرناوي.

ولعلّ هذه النقاط يمكن أن تُمثّل أهمّ النتائج التي تمّ التوصلُ إليها من خلال المصاحبة الدراسيّة لحياة الشيخ محمد أبّه أـج الدعويّة، وهي مصاحبةٌ ممتعةٌ، استفاد منها الكاتبُ فوائدَ متنوّعةً تتعلق بقضايا متعدّدة، أسأل الله سبحانه تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا أن يغفر للشيخ، وأن يُسكنه فسيح جناته، وأن يجعله مع الذين أنعم عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن ينفعنا بما علّمنا، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل؛ إنه سميع قريب.

المراجع

أحمد بن غانم الأزهري، الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيرواني، الطبعة الأولى، دار الفكر ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

الألباني، محمد ناصر الدين، الإرواء الغليل في تخریج أحاديث منار السبيل، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه / صحيح البخاري، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة ١٤٢٢ هـ .

ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

- ابن الحاج، المدخل، دار التراث (د ت)
خليل بن إسحاق، مختصر خليل، الطبعة الأولى، دار
الحديث - القاهرة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٦ م.
الرقيامي، علي بن أحمد ذكر وقائع رابع، مخطوط.
ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الطبعة الأولى،
دار الكتب العلمية ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
السرخسي، المبسوط، الطبعة الأولى، دار الفكر بيروت
لبنان ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.
السعدي، عبد الرحمن، القواعد الفقهية لفهم
النصوص الشرعية، دار البصيرة - الإسكندرية (د ت)
السيوطي، عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، الطبعة الأولى
دار الكتب العلمية ١٤١١ هـ ١٩٩٩ م .

شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي،
الطبعة الأولى، (د ت) دار المعارف.

صالح الأزهري، الثمرالداني شرح رسالة ابن أبي زيد
القيرواني، المكتبة الثقافية - بيروت (د ت).

علاء الدين السمرقندي، تحفة الفقهاء، الطبعة الثانية
دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

الفاكهاني، المورد في حكم المولد، المكتبة الشاملة،
الإصدار: الثالث، القسم: العقيدة.

فضل كلود دكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر
الذهبي لإمبرطورية كانم، طبعة كلية الدعوة الإسلامية،
طرابلس - ليبيا ١٩٩٨ م.

ابن قدامة، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل
الشيباني، الطبعة الأولى دار الفكر - بيروت ١٤٠٥ هـ .

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ابن كثير، تفسير القرآن اعظيم، الطبعة الثانية، دار الخير بيروت - لبنان ١٣١٢هـ - ١٩٩١م.

مالك ابن أنس، الإمام، موطأ الإمام مالك، الطبعة الثانية، المكتبة العلمية (د ت).

مصطفى أبوشعشيع، برنو في عهد الأسرة الكانمية.

محمد أحمد عيش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام المالك، دار المعرفة (د ت).

النووي، المجموع شرح المهذب، دار الفكر (د ت).

الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي

أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، الطبعة الأولى، وزارة

الأوقاف والشئون الإسلامية - المملكة المغربية ١٤٠١ هـ
١٩٨١ م .

مجلة طه، الإصدار الأول ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ .

فهارس محتويات

العنوان	الصفحة
تقديم فضيلة الشيخ إبراهيم مصطفى مالك.....	٢
المقدمة.....	٤
نبذة يسيرة من سيرة الشيخ:	
مولده، حياته العلمية، ذكر بعض شيوخه،	١٣
تبكير الشيخ الانخراط في العمل الدعوي.....	١٦
وفاة الشيخ رحمه الله.....	١٧
أبرز الأمور التي تركزت عليها دعوة الشيخ.....	٢٠
دخول الإسلام منطقة برنو.....	٢٧
دور ملوك كانم برنو في نشر الإسلام في المنطقة.....	٢٩
بعض التحولات التي أثرت على الوضع الديني في برنو.....	٣٠

أبيات غوني علي الرقيامي الساخنة يصف فيها الحالة
الدينية، وسبب انتصار جنود رابع على جيوش مملكة
برنو..... ٣٢

اشتمال هذه الأبيات على التصوير الفني من ذراعه
المجازي.....- ٣٤

أهميّة المعلقات السبع في بناء العمل الأدبي، وتدوُّق
اللغة العربيّة..... ٣٥

دور الشعر في النشاطات التفسيرية..... ٣٦

تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله:

هيمنة قضية التوحيد على دعوة الشيخ ٣٩

ربط القرآن الكريم بالواقع المعاصر..... ٤٤

تأصيل القرآن الكريم القواعد العامّة والأصول الأساسية
..... ٤٦

عالمية القرآن الكريم، وصلاحيّة تشريعاته لكل زمان

ومكان ٤٧.....

بعض الفنون الإسلاميّة التي توضّح عالمية القرآن الكريم:

القواعد الأصوليّة - القواعد الفقهيّة - مقاصد

التشريع..... ٥٠.....

ذكر بعض العادات التي حاربها الشيخ لاشتمالها على

مخالفات شرعيّة..... ٥١.....

دقة الشيخ في معرفة المخالفات في بعض العادات.. ٥٨

حكم العادة التي لا تشتمل على المخالفة الشرعيّة.. ٦٠

أهميّة قاعدة: العادة محكمة في الحقل الفقهيّة، ودورها

في تقييد بعض الأحكام المطلقة..... ٦١.....

- اعتبار المذاهب الفقهيّة الأربعة لهذه القاعدة، وذكر
نماذج تطبيقية لها.....٦٢
- الميدان التطبيقي لهذه القاعدة.....٦٤
- ذكر بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في العادة قبل
قيامها بالوظيفة التقييدية.....٦٦
- تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه
وسلم.....٧٠
- الأجواء التي هيأت لانتشار البدع في البيئة البرناوية...٧٠
- ذكر طرفاً من أبرز البدع التي حذر منها الشيخ :**
- الذبح في اليوم الثاني من الوفاة.....٧٣
- تحديد بعض الأيام بعد الوفاة للاجتماع.....٧٦
- الاحتفال بالمولد النبوي.....٧٧
- مدح النبي صلى الله عليه وسلم أمر مشروع.....٧٨

- اشتمال بعض أبيات البوصيري على الإطراء المنهي عنه..... ٧٩
- ليس هناك علاقة بين مدح النبي صلى الله عليه وسلم وبين الاحتفال بالمولد..... ٨١
- أقوال بعض الفقهاء المالكية في بدعية الاحتفال بالمولد: كلام الإمام ابن الحاج في كتابه المدخل..... ٨١
- كلام الإمام الفاكهاني في رسالته المورد في حكم المولد... ٨٥
- اشتمال هذه الرسالة على براءة الاختتام..... ٨٧
- كلام الإمام أحمد عlish في فتح العلي المالك..... ٨٨
- فتوى الإمام أبي عبد الله الحفار الذي نقله الونشريسي في كتابه المعيار المعرب..... ٩٠
- فتوى الإمام أبي اسحاق الشاطبي الذي نقله الونشريسي أيضاً..... ٩٢

- توضيح موقف المذهب المالكي في قضية الاحتفال بالمولد.....٩٢
- من البدع التي حذر منها الشيخ الدعاء الجماعي بشكلٍ دائمٍ أدبار الصلوات المكتوبة.....٩٦
- كلام الإمام مالك حول الدعاء الجماعي بعد الصلوات المفروضة.....٩٧
- محاربة السحر والشعوذة.....١٠٠
- سبب انتشار السحر.....١٠٢
- الدين يكثرون من ممارسة السحر.....١٠٣
- الأسلوب المنهجي الذي استخدمه الشيخ في إيصال رسائله الدعوية.....١٠٧
- ذكر بعض الكتب التي درّسها الشيخ.....١٠٧

المراجع..... ١٣٠

الفهارس..... ١٣٥

وبالله التوفيق
والحمد لله رب العالمين